الفصل الثالث

مُعلقات الشعر العربي وحوليَّاته

المبحث الأول: المُعلّقَات:

المبحث الثاني: الحوليَّات:

obeikandl.com

المبحث الأول

المُعلّقَات

المُعلّقَات قصائد نفيسة ومنتقاة، افتخر بها العرب، واهتم بها النقاد والدارسون منذ عصرها ـ عصر ماقبل الإسلام ـ وحتى يوم الناس هذا، فقد حسن اختيارها وذاعت شهرتها ومازالت تلك النفائس الأدبية التي كلما راجعناها وأعدنا النظر فيها تتألق في سماء الشعر العربي، وهي علق ثمين يزين نحر أدبنا العربي ويحلي جيد تراثنا التليد.

ومن المعروف " أن أدبنا العربي غنيٌّ بكنوزه الثمينة التي اختزنها على مدى ستة عشر قرناً من الزمان حيث وصلت إلينا لآلئه الأولى التي تكشفت عنها محاولات العمل الإبداعي، وغاص عليها صائدو الفن والجمال ونظموا منها عقود الجمان من معلقات وسموط ومذهبات وغير ذلك من مطولات الشعر الجاهلي مما تكشفت عنه مصادر ذلك الشعر من مثل (المفضليات) و(الأصمعيات) و(الحماسات)، وكذلك ما حقق من دواوين الشعراء في تلك المرحلة.. من مراحل الإبداع الأدبي عند العرب.. ثم تتالت الكنوز عبر المراحل المتباينة التي أعقبت تلك المرحلة لتجود بأنماطٍ أخرى من الإبداع الأدبي وإن تفاوتت فيما بينها تفاوتاً ملحوظاً بطبيعة الحال، حيث كانت تتواضع حيناً، وتشمخ بأنافها شموحاً عظيماً في كثير من الأحايين مؤكدة تفوق العبقرية العربية في صياغة الأدب شعراً ونثراً"(1).

ولايخفى ماللذوق من أثر في اختيار القصيدة أوفي الحكم على قصيدة ما، وقد راعى النقاد في اختيارهم وأحكَامهم الأذواق العامة، والأذواق الخاصة. فرشحت قصائد في عصر ماقبل الإسلام،من أغلب رواة الشعر ومتذوقيه لتكون الأنموذج الذي لايجارى، والسبق الذي لايبارى حتى إنها استوفت أذواق المتلقين وسيطرت على

(1) الأدب الجاهلي، الدكتور خليل أبو ذياب، ص 5.

obeikandl.com

قلوب السامعين فعلّقت بين ثناياها ،وذاع صيتها في الآفاق، وتناولتها الأخبار وسطّرت خالدة على الأوراق، وقد أطلق عليها تسميات كثيرة، وأوصاف متعددة، ولم تطلق اعتباطاً بل تدخل ذوق المتلقي في إظهارها ، فهناك من قال: إنها (المذهّبات)، ومن شغف العرب بها وإعجابها كتبتها بماء الذهب في نسيج من صنع أقباط مصر وعلقوها على أستار الكعبة تعظيماً لأمرها ومنزلتها ، ومكانتها ،وجلالة شأنها ونفاسة قيمتها ، وإكباراً لأصحابها.

وإذا أنعمنا النظر في أمهات كتب الأدب العربي ونقده فإننا نجد آراء متباينة فمنهم من يسميها (السّبع الطوال)(1) ومنهم من يسميها القصائد المشهورات(2) ومنهم من يسميهاالسّبع الطوال الجاهليّات(3)، وهناك تسميات أخرى منها: السموط(4) والسّبعيَّات(5) والمذهبات(6) ومن الممكن الاعتقاد أن لفظ (المعلقات) هو أصل التسمية في هذه القصائد، وما الأسماء الأخرى إلاّ نعوت وألقاب أطلقت عليها إعجاباً بها، ولا ريب في أن تكون هذه القصائد متنوعة الموضوعات، ومتعددة الأغراض إلاّ أنها كانت أنموذجاً للشعر العربي صياغة ومضموناً، إذعبّرت عن حياة عصر ماقبل الإسلام بتفاصيلها ودقائقها كلها لذلك "لفتت المُعلّقَات أنظار الأدباء وعلماء اللغة منذ زمن بعيد، فانكبوا عليها يدرسونها ويقتبسون منها في كتبهم وفي استشهاداتهم. وأقبل فريق من الأدباء على شرحها وتفسير غامضها وتوضيح مفرداتها

(1) ينظر: معجم الأدباء، المرزباني 14/4.
(2) شرح القصائد التسع المشهورات لابن النّحاس 125/2.
(3) شرح القصائد السّبع الطوال الجاهليات، ص.
(4) الجمهرة: 34 والعمدة 96/1.
(5) إعجاز القرآن، الباقلاني، ص 159.
(6) الشعر والشعراء 252/1 والعمدة96/1.

obeikandi.com

ومعانيها"[1] وقد تعددت شروحها وتنوعت، وهي شروح لها شأن في اللغة والأدب والنقد[2].

ولكن لايعني أن لفظ المُعلّقَات قد غاب عن النقاد في هذه المرحلة المحددة للبحث، بل إن حمّاداً الراوية "هو الذي روى تلك القصائد وأطلق عليها لفظ المُعلّقَات تنويهاً بشأنها وحثّاً للناس عليها، ومن هنا خرجت أسطورة الكتابة والتعليق، فليس معنى معلّقة أنها كتبت وعلقت على حائط أومعبد، وإنما التسمية هنا مجازية تآلفها العرب، فهم يدعون القصيدة الجيدة سمطاً، كما رأينا في شعر علقمة، والسمط هو القلادة، والقلادة لا تكون إلا من نفيس ولاتعلق إلاّ في الجيّد، فالمُعلّقَات معناها السموط والقلائد معناها الجودة والنفاسة"[3]. هذا هو رأي الدكتور بدوي طبانة، وقد أولى هذا الموضوع عناية فائقة، وأفرد كتاباً لدراسة المُعلّقَات ناقش فيه الذين أنكروا تسمية المُعلّقَات وفنّد حججهم، وفي الوقت نفسه رد على حجج الباحثين المعاصرين في إنكار التعليق ومما لاشك فيه أن هذه القصائد "استحسنتها العرب، وحرصت على حفظها والتغني بها وروايتها، ونستطيع أن نقرر أنها كانت في نظر الشعراء والنقاد الصورة الكاملة للفن الشعري، وأن أصحابها

---

(1) مصادر الدراسات الأدبية واللغويةالدكتور داود إبراهيم غطاشة وعبد القادر أبو شريفة، 17.

(2) من هذه الشروح.

أ. شرح بن كيسان (ت32.هـ).

ب- شرح القصائد السّبع الطوال الجاهليّات لابن الأنباري (ت328هـ).

ج- شرح القصائد التسع المشهورات لابن النّحاس (ت338هـ).

د- شرح أبي علي القالي (ت356هـ).

هـ- شرح المعلّقَات السّبع للزوزني (ت486هـ).

و- شرح عاصم بن أيوب (ت494هـ).

ز- شرح القصائد العشر للتبريزي (ت5.2هـ).

ح- شرح المعلّقَات السّبع لأبي سعيد.

ط- شرح المعلّقَات العشر واخبار قائليها لأحمد الأمين الشنقيطي (ت913م).

(3) دراسات في نقد الأدب العربي، ص73.

openkandil.com

هم المقتدى بهم في صناعة الشعر"[1] غير أن هذا الأمر لم يقف عند رواية حمّاد والتسليم بها فعلينا مناقشة ذلك، لأننا ارتأينا أن نقبل بأن حماداً هو أول من اختار القصائد السّبع فهذا في حد ذاته عملٌ نقديٌّ لأن الاختيار قائم على موقفٍ ومستند إلى نظرية، فلابد من وجود أسس بمقتضاها يقدم الشعر الذي وقع عليه اختيار الناقد. وهذا بلا ريب يعتمد على ذوق حمّاد والمقياس الذي ارتآه. فقد " بحث حمّاد في تراثٍ شعريٍّ ضخمٍ، وانتهى به البحث إلى انتقاء سبع قصائدَ، عدّت من خيار الشعر ونفائسه"[2] إلاّ أننا لم نجد مايشير من قريبٍ أو بعيد إلى أنه قال عنها: إنها علّقت على أستار الكعبة، ولعل اسم المُعلّقَات ومايترتب عليه هو المحور النقدي الرئيس الذي ارتأينا أن نناقشه في هذا البحث وقبل أن نستعرض آراء النقاد القدامى والمحدثين عن أمر التعليق على جدار الكعبة وعدمه، لابد من التأكيد على أن لهذا المصطلح أصلاً جاهليّاً، وهناك ملاحظة مهمة وذات قيمة فيما نحن بصدده وهي "إذا كانت كلمة المُعلّقَات قد وصلت إلينا فهذا يدل على أن الوصف بها له سبب دعا إليه، وينبغي أن نتذكر أن الدولة الإسلامية لم توجه عنايتها إلى الشعر الجاهلي إلا بعد استقرار الحياة الدينية والسياسية، وتقدم النهضة الفكرية، ومعنى ذلك أن الوصف القديم الذي مازال باقياً محفوظاً له أصل في الجاهلية. ولماذا نصرف الكلمة عن معناها الأول ونمضي وراء التأويل كما حلا للبعض من عرب ومستشرقين قدماء ومحدثين، علماً بأن الأسماء والأوصاف آنذاك لم تكن تمعن في الرمز أو الاستعارة أوالتشبيه بل كانت ذات دلالات مباشرة أو كالمباشرة"[3] وعلى هذا الأساس فإن لفظ المُعلّقَات عاد إلى أصله وشاع وانتشر في كل أصقاع الأرض فحيثما ذهبنا وأينما اتجهنا لم يبارح أحداً منَّا، وحتى الذين أنكروا التعليق واتبعوا تسمياتٍ أخرى لهذه القصائد فهم أيضاً يذكرون التعليق في كتاباتهم سواءٌ بقصدٍ

(1) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، طه أحمد إبراهيم، ص 28.

(2) تقويم جديد لجهود حماد الراوية في رواية الشعر العربي ونقد (مقال:) الدكتور زكي ذاكر العاني، مجلة المورد، العدد الأو ل لسنة 1999م، ص31.

(3) من قضايا الأدب الجاهلي، ص71.

obeikandl.com

أو من دون قصد ، ولا أظن الناس في يومهم هذا يرتأون للمعلقات اسماً آخر، وقد ثبتت في المناهج التدريسية في مدارسنا العربية بـ" المُعلّقَات". لذا لابد من متابعة هذا المصطلح لعلنا نصل إلى نتيجة تحسم أمر التعليق أو تنفيه ومن دراستنا لمصادر الأدب العربي ونقده رأينا أن الحديث عن هذا الموضوع قد تشعب وتباينت فيه الآراء، وليس بمقدورنا حصر هذه الآراء كلها لأن مثل هذا الحصر يحتاج إلى بحث متكامل القوام. لذا فقد رأينا أن نبدأ بأول من أشار إلى تسمية المُعلّقَات وأكد أنها علقت على أستار الكعبة،ويبدو أن ابن الكلبي المتوفى (240هـ) قد أشار إلى ذلك وصرح ضمناً بقوله: " أول شعر علّق في الجاهلية شعر امرئ القيس علق على ركنٍ من أركانِ الكعبة أيام الموسم حتى نظر إليه، ثم أحدر فعلّقت الشعراء بعده، وكان ذلك فخراً للعرب في الجاهلية وَعَدُّوا من علق شعره سبعة نفر"(1) هم: امرؤ القيس بن حجر، وزهير بن أبي سلمى، ونابغة بني الذبيان، والأعشى البكري ولبيد بن ربيعة وطرفة بن العبد وعمرو بن كلثوم. وهؤلاء السّبعة كانوا من اختيار حمّاد، ولم يخالفه أبو عبيدة(2) لذلك قال المفضل: "هؤلاء أصحاب السّبع الطوال التي تسميها العرب السموط، فمن زعم أن في السّبع الطوال شيئاً لأحد غيرهم فقد اخطأ وخالف ماأجمع عليه أهل العلم والمعرفة"(3) ويتفق رواة القرنين الثاني والثالث على أن المُعلّقَات سبعٌ وهو ماكان قد اتفق عليه القدماء إلاّ أن الاختلاف كان في الشعراء فقط. فالأصمعي يشاطر حمّاداً في عدد القصائد، ولكنها تخلو من قصيدتي الحارث بن حلزة وعنترة العبسي، ويضع مكانهما قصيدتي النابغة الذبياني والأعشى الكبير وقد جزم في قوله :" إن هذه هي السبع السموط، ومن قال بغير ذلك فقد أبطل "(4)

(1) وفيات الأعيان 131/5.وينظر:الفهرست، ص 96، ومقدمة السّبع الطوال، ص 11، وتاريخ آداب العرب 184/3 وشرح المعلّقَات العشر، د. مفيد قميحة، ص13.

(2) ينظر: جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام 153/1-307.

(3)جمهرة أشعار العرب 13/1.-131 للاستزادة ينظر: خزانة الأدب 137/1.

(4) ينظر: من قضايا الشعر الجاهلي، د. أ حمد عوين، ص 65 . 66.

openkanal.com

وإذا أنعمنا النظر في هذه القصائد التي شملها التعليق بين " سبع وتسع وعشر" لرأينا أن التقسيم السباعي هو الأصل،أما البقية فزيادة منبعها اختلاف القصائد السبع من راوٍ لآخر فكان قوامه مجتمعة عشر قصائد ، وهذا التقسيم السباعي لا بد له من أساس فمن غير المعقول أن يكون اعتباطاً وعلى غير أساس،والمعروف أن التقسيم السباعي تقسيمٌ قديمٌ يعودُ إلى قرونٍ طويلةٍ قبل الميلاد ، فالسماوات سبع،والأرضون سبع،والكواكب السيَّارة سبعة.والطواف حول الكعبة سبعة أشواط، وكان الطواف حول الأصنام أيضاً سبع مرَّات وعجائب الدنيا سبعة وألوان قوس قزح سبعة والأنغام الموسيقية سبعة ، وأيام الأسبوع سبعة ، والعدد سبعة عدد مقدَّس عند بعض الشعوب القديمة(1) ولكن هذا ليس له أي أهمية طالما وأن التقارب فيما يبدو إلى الناحية الفنية أقرب.

فقد استثنى بعضهم من السّبعة الذين ذكروا آنفاً النابغة والأعشى واستبدلهما بالحارث بن حلزة وعنترة العبسي(2) وهذا ما دأب عليه شرّاح المُعلّقَات أوالقصائد السّبع.

أما صاحب الجمهرة فقد عمد إلى ذكرها باسم المُعلّقَات في مجموعته الشعرية (جمهرة أشعار العرب) من دون أن يعلِّقَ على تسميتها بشيءٍ أو يشيرُ إلى أمر تعليقها في مقدمته المسهبة.

وقد اتفق مع أبي عبيدة والمفضل في رأيهما ، في حين جمع التبريزي قصائد هؤلاء الشعراء جميعاً ، وأضاف إليهما قصيدة أخرى لعبيد بن الأبرص ليصبح عدد المُعلّقَات عشراً هي:

1- معلقة امرىء القيس وهي على الطويل،وعدد أبياتها اثنان وثمانون بيتاً ومطلعها:

---

(1) ينظر:المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام 518/9، وشرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ص93، طه أحمد إبراهيم، ص 28.

(2) للاستزادة عن معرفة أصحاب هذا الرأي ينظر: العقد الفريد 269/5-27. والعمدة 96/1، والقصائد التسع المشهورات لابن النّحاس، ص 46. وتبعهم في ذلك ابن الانباري والزوزني.

obeikandl.com

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

2ـ معلقة زهيربن أبي سلمى وهي على الطويل، وعدد أبياتها ثلاثة وستون بيتاً ومطلعها:

أمِنْ أمّ أوفى دِمنةٌ لم تكلّمِ بحومانةِ الدُّرَّاج فالمتثلّمِ(1)

3ـ معلقة طرفة بن العبد وهي على الطويل، وعدد أبياتها مائة وبيتان ومطلعها:

لِخَولَةَ أطلالٌ ببُرقةِ ثَهمدِ تلوحُ كباقي الوشمِ في ظاهرِ اليدِ(2)

4ـ معلقة عنترة بن شداد وهي على الكامل وعدد أبياتها ثلاثة وثمانون بيتاً ومطلعها:

هل غادر الشعراء من متردَّمِ أم هل عرفت الدار بعد توهمِ(3)

5ـ معلقة عمرو بن كلثوم وهي على الوافر وعدد أبياتها مائة وأربعة وعشرون بيتاً ومطلعها:

أَلا هُبِّي بصحنكِ فاصبحِينا ولا تُبقي خُمُورَ الأَندرِينا(4)

---

(1) شرح ديوان زهير، ص24.وأم أوفى:المقصود بها امرأة زهير والدِّمنة:ما أسود من آثار الديار بالبعر والرماد وغيرهما. والجمع الدمن والدراج والمتثلم:موضعان موجودان في نجد.

(2) ديوان طرفة بن العبد، ص 38 ـ 56. وخولة اسم امراة كليبية، والطلل ماشخص من رسوم الدار، والجمع أطلال وطلول.والبرقة والأبرق:مكان اختلط ترابه بحجارة وحصى.. وثهمد: موضع. تلوح: تلمع. الوشم: غرز ظاهر اليدوغيره بإبرة وحشو المغارز بالكحل أو النقش بالنيلج. يقول :لهذه المرأة أطلال ديار بالموضع الذي يخالط أرضه حجارة وحصى من ثهمد فتلمع تلك الأطلال لمعان بقايا الوشم في ظاهر الكف، شبه لمعان آثار ديارها ووضوحها بلمعان آثار الوشم في ظاهر الكف. ينظر: م. ن هامش، ص 38.

(3) ديوان عنترة ومعلقته، ص 52 وفي بعض الروايات مترنم :والترنيم هو ترجيع الصوت مع تحزين. والمتردم:الطلل البالي الذي يسترفع ويستصلح لما اعتراه من الوهن.وهنا الاستفهام انكاري والمقصود: لم يترك الشعراء لنا شيئا ًنرقعه أو نرممه أي لم يتركوا فناً شعرياً إلاوطرقوه.فماذا بقي للمتأخرين من المتقدمين؟! ولم يقل بذلك عنترة فحسب بل إن هناك شعراء آخرين تبعوه وقالوا مثله منهم: زهير بن أبي سلمى وابنه كعب.ومع هذا يجب أن نعرف أن لكل شاعرأصيل موهبته وتجربته وأسلوبيته المهم ليس الموضوع بتكراره بل كيف تناوله الشعراء.

(4) ديوان عمرو بن كلثوم، ص 75. هب من نومه يهب هباً، إذا استيقظ والصحن:القدح الكبير، جمعه أصحن أو أصحان.والصَّبوح:شرب الغداة.والأندرين: من قرى حلب.وقيل من قرى الشام.ينظر معجم البلدان، والمخصص 98/11.

obeikandl.com

6. معلقة لبيد بن ربيعة العامري وهي على الكامل، وعدد أبياتها تسعة وثمانون بيتاًومطلعها:

عَفَتِ الدِّيارُ مَحَلُّها فمقامُها بِمنىً تأبَّدَ غُولُها فَرِجامُها(1)

7 ـ معلقة الحارث بن حلزة اليشكري وهي على الخفيف وعدد أبياتها خمسة وثمانون بيتاً ومطلعها:

آذنتنا ببينها أسماءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّواءُ(2)

8. معلقة الأعشى وهي على البسيط، وعدد أبياتها أربعة وستون بيتاً ومطلعها:

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ وَهَلْ تَطِيقُ وَدَاعاً أيُّها الرَّجُلُ(3)

9ـ معلقة النابغة الذبياني وهي على البسيط، وعدد أبياتها خمسون بيتاً ومطلعها:

يا دار ميّة بالعلياء فالسّندِ أقوتْ وطال عليها سالِفُ الأبد(4)

10. معلقة عبيد بن الأبرص وهي على بحر الخفيف، وعدد أبياتها خمسون بيتاً ومطلعها:

أقفَرَ من أهلهِ مَلْحُوبُ فالقُطَّبِيَّاتُ فالذَّنُوبُ(5)

ولا ريب في أن تكون هذه القصائد طويلة كاملة، وذلك لأنها تشمل أكثر من موضوعٍ، فضلاً عن أن فيها مجموعة تجارب متماسكة المشاعر" مترابطة

---

(1) ديوان لبيد وعفت ديار الأحباب: انمحت منازلهم. والمحل من الديار ما حل فيه لأيام معدودة والمقام منها: ما طالت الإقامة به.ومنى: موضع بحمى ضرية غير منى الحرم.وتأبد: توحش، والغول والرجام: جبلان معروفان.والمعنى عفت ديار الأحباب وانمحت منازلهم، وقد توحشت ديارهم بالغول والرجام لارتحالهم عنها.

(2) ديوان الحارث بن حلزة، ص 14 آذنتنا :أعلمتنا، والبين:الفراق،والثاو:المقيم. والفعل ثوى يثوي.

(3) ديوان الأعشى، ص105.وهريرة قينة كانت لرجل من آل عمرو بن مرثد أهداها إلى قيس بن حسان بن ثعلبة بن عمر بن مرثد فولدت له خليداً.والركب:لا يستعمل إلاّ للإبل، وهل تطيق وداعاً أي أنك تفزع إن ودّعتها.

(4) ديوان النابغة الذبياني، ص169، والعلياء من الأرض:المكان المرتفع. والسند: سند الوادي في الجبل، وأقوت :خلت.والسالف:الماضي، والأبد الدهر.

(5) ديوان عبيد بن الأبرص، ص 25..وأقفر: أي خلا وملحوب: ماء لبني أسد، بن خزيمة، والقطبيّات :اسم جبل، والذنوب: اسم موضع.

العواطف ترتبط المقدمة فيها بالموضوع لأن الشاعر عرف كيف يربط بينهما من حيث الجو النفسي العام فأتت أكثر القصائد من نبع شعوري متحد. "[1]

ولا شك في أن هذه القصائد كانت عرضة للتنقيح والتشذيب والصنعة الفنية وتبعا لذلك سارت على نظام معين ونسق معروف سنَّه القدماء منذ عهد امرىء القيس، وتبعه الشعراء على المنهج نفسه الذي يلملم موضوعات القصيدة وأجزاءها مع العلم أن موضوعات القصيدة لم تكن مرتجلة على غير نظام بل كان الشاعر يمهد لموضوع قصيدته فيجعل لها مقدمة طللية. ينتقل بعدها إلى ذكر الأحباب الراحلين وتذكر أيام الهوى، ثم يفخر أمام حبيبته بمفاخره وبطولاته العظيمة ووقائعه الشديدة، وقد يتداخل فخره بنفسه بفخر قبيلته، ومن ثم يصف رحلته التي تجشم فيها المهاول والأخطار يصحب معه الناقة أو الجواد فيصف ما يصف من المشاهد الطبيعية بشدَّها وجذبها بخيرها وشرها بأمنها وخوفها وبصراعها، المتكرر مع الحيوانات، فيصف الصراع العنيف الذي يخرج الشاعر منه منتصراً دائماً. وبعد أن يشفي غليله وحاسته الفنية من رسم هذه اللوحات الرائعة والقصص الممتعة يعود إلى ذاته ويستيقظ من جديد ويلخص تجاربه في حكم شاردة وتأمل في الدنيا ومصير الإنسان في نهاية العمر.وهذا بالتأكيد يختلف عن القصائد القصار التي نجد فيها تجارب شعورية كاملة، وصوراً صادقة للحياة الجاهلية وترجماناً دقيقاً لعواطف الشاعر وأحاسيسه لأنها لم تصدر عن صناعة وتتمثل في هذه القصائد التجربة الشعورية الصادقة كما تتصف بالوحدة الموضوعية، ونلمح هذا النوع في شعر الصعاليك بدرجة رئيسة، فقصائدهم يكاد " يهيمن عليها شعور

(1) الأصول الفنية للشعر الجاهلي، الدكتور سعد إ سماعيل شلبي، ص 151. للإستزادة ينظر: الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، الدكتور محمد النويهي 2 / 443 . 445.

openkanal.com

موحد وتنسجم صورها مع الموضوع والعاطفة لتشكيل الوحدة العضوية التي تجعل القصيدة متماسكة "[1].

ولكن لايعني أن المعلقات تفتقد إلى الوحدة العضوية ولا يعني أنها تبنى على نمط واحد من حيث الموضوعات فلكل معلقة أغراضها وموضوعاتها، ولكنها تلتقي في البنية والهيكل المتنوع والمنهاج المعد... فالقصيدة هي في الأساس بناء فكري عاطفي لها أجزاؤها التي تكونها فتتشكل من خلالها لتصبح بناءً متكاملاً ذا مضمون واضح. ووحدة العمل الفني تقتضي إدراك الموضوع وما يتضمن من الأفكار وتنظيم المعاني حتى تأتي مسلسلة منسقة، وهي عند شعراء ما قبل الإسلام مقسمة على أقسام متعددة وتشتمل على موضوعات ومضامين متباينة مرتبطة بسياق وثيق. وأغراض القصيدة عادة ما تبدأ بالغزل، ووصف الطبيعة، وغيرها حتى يختتم قصيدته بشيء من الحكم وكانت تبدأ بذكر الديار والدمن والآثار، يشكو فيها الشاعر، ويبكي ويخاطب الريح، ويستوقف الرفيق، ليكون ذلك ذريعة لذكر أهلها الذين نزحوا عنها وفارقوها، ويعلل بعض الدارسين تسمية تعدد الأغراض في القصيدة القديمة ويردون ذلك أنه كان نابعاً من اختلاط التجربة الذاتية بالتجربة الجماعية ومن امتزاج شخصية الشاعر بحياة القبيلة فلابد من وحدة نفسية عاطفية تؤلف بين هذه الموضوعات والمشاعر لكي تتناسب مع مقتضيات حياتهم وأحوالهم، وقد قال ابن قتيبة: " إن مقصد القصيد إنما بدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، وبكى وشكى وخاطب الربع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذا كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر، لانتقالهم من ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلأ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق، ليميِّل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريب من النفوس لاقط بالقلوب.. فإذا علم أنه استوقف من الإصغاء إليه والاستماع له، عقب بإيجاب الحقوق، فرحل

(1) الأدب المقارن ومتطلبات العصر، الدكتور حيدر غيلان، ص 87.

obeikandl.com

في شعره، وشكا النصبَ والسهرَ، وسُرَى الليلِ وحر الهجير وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حتى الرجاء وذمامة التأميل، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة، وهزه للسماع وفضله على الأشباه، وصغر في قدره الجزيل"(1) فالجاحظ سبق ابن قتيبة وقال :"وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان"(2).

وتقول الباحثة حياة جاسم: " إن الارتباط بين الأغراض موجود على الرغم ما يبدو بينها من تباين وتباعد، وإنه يقوم على على عاطفة تظهر في شكل إيجابي هو عاطفة الحب، وتظهر في شكل سلبي، هو عاطفة البغض، فعاطفة الحب تشد الغزل إلى الناقة إلى المديح أو الفخر أو الرثاء أو وصف ما يستجيب، وتتطور عاطفة الحب إلى شكلها السلبي (البغض) في الهجاء ووصف ما يكره وهذا الارتباط العاطفي بين أغراض القصيدة يمنحها نوعاً من الوحدة سمّيناه (الوحدة العاطفية)، ليست هي الوحدة العضوية الغربية"(3)

وكان الجاحظ قد أشار إلى الشعر ولم ينظر إلى القصيدة ويبدو أنه شمل القصيدة في ذلك.

ويبدو أن ابن خلدون كان موفقاً وهو يتحدث عن صناعة الشعر مؤكداً"ضرورة التناسب بين أبيات الشعر في موالاة بعضها مع بعض على الرغم من استقلال كل بيت منه بأنه كلام تام في مقصوده، ويصلح أن يفرد دون ما سواه. (4)

---

(1) الشعر والشعراء 1 /74 . 75. ونازلة العمد: هم أصحاب الأبنية الرفيعة الذين ينتقلون بأبنيتهم، ونحو ذلك فسر الفراء قوله تعالى ﴿ إرم ذات العماد﴾ سورة الفجر:أنهم كانو أهل عمد ينتقلون إلى الكلأ حيث كان ثم يرجعون إلى منازلهم.والذِّمامة :الحق والحرمة. ينظر:م. ن الهامش.

(2) البيان والتبيين 67/1.

(3) وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي، حياة جاسم، ص411.

(4) المقدمة، ص522.

openkandi.com

غير أن النقاد القدماء لم يتفقوا فيما بينهم على رأي أو موقف في نظرتهم إلى الوحدة الأدبية هل هي القصيدة كلها أم البيت المفرد ؟ بمعنى أنهم لم يتفقوا على أن يعدوا البيت وحدة مستقلة أو يعدوا القصيدة هي الوحدة والبيت مجرد جزء منها.[1] وهذا ما نستشفه من خلال الآراء التي دللنابها لكن هذا لم يؤثر على القصيدة طالما والوحدة الشعورية هي الركيزة المؤلفة للقصيدة سواء تعددت الأغراض أو الموضوعات أو لم تتعدد فالقصيدة العربية في العصر الجاهلي لها وحدتها الفنية والشعورية، وهناك رأيٌ مهمٌ جاءت به حياة جاسم وهو " إن الادعاء بأن الشعر العربي يقوم على الأبيات المستقلة المتعارضة المتنافرة ادعاءٌ مبالغٌ فيه، فاستقلال البيت لا يتعارض مع ارتباطه بما قبله وما بعده، كما أن في الشعر العربي كثيراً من أوجه الارتباط الوثيق بين الأبيات، مما يلزم بفتح باب الاستثناء لتلك القاعدة التي يصرُّ عليها الدارسون على شمولها وعموميتها "[2].

وعلى هذا الأساس فإن تعدد الموضوعات لا يحول دون الوحدة الفنية، وقد ذهب الدكتور النويهي في دراسته للشعر الجديد في القول إلى إن الشاعر يستطيع أن "يحقق الوحدة في بنائه لقصيدته بأن يرتب الموضوعات ترتيبا يقوم على النمو المطرد، بحيث ينشأ أحدها من سابقه نشوءاً عضوياً مقنعاً، ويعود إلى لاحقه بنفس الطريقة، وبحيث تتكامل أجزاء القصيدة في توضيح عاطفتها المسيطرة واتجاهها المركزي فتركت علينا في النهاية أثراً فنيّاً موحداً متكاملاً لم نشعر فيه بخلل أو تناقض أو انتكاس من الشاعر عن اتجاهه الذي كان يتخذه "[3].

ويرى الدكتور عبدالله الطيب المجذوب " أن القصيدة الجاهلية ليست مفككة العرى مضطربة الرصف مختلفة الأغراض، لأن الناقد متى تعمق وأدق النظر تبين له اتصال الروح فيها لأن الشاعر كان يحاول أن يتدرج في انفعاله

---

(1) ينظر: مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية، الدكتور عبد الحليم حفني، ص 17 . 18.

(2) وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي، ص 411.

(3) الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه 2/ 436. وللنويهي آراء سديدة عن الوحدة الفنية والعضوية في الشعر الجاهلي. ينظر:م. ن 2/ 444 - 445، 448 - 449.

obeikandl.com

تدرجاً. فيبدا بالنسيب..ثم متى استوفى الشاعر غرضه من إحداث الحيوية، الانفعال من طريق نعت الرحلة والناقة أخذ في الفخر وما أشبه ذلك من أغراضه"[1]. في حين راى الدكتور جلال الخياط "أن القصائد التي تفتقد وحدة الموضوع يجب أن تقرأ ككل وأن نفكر بأحاسيس قائلها وتجربته، وأن نتمثلها ولا بد من علاقة تربط بين الموضوعات التي تتناولها القصيدة، وهذه العلاقة هي الشاعر نفسه، وعلينا ألا ننساه ولكل قصيدة إطار ينتظم أبياتها"[2].

وقد تعددت الآراء وتنوعت في هذا السياق، ولا نريد أن نطيل في الحديث عن القصيدة ووحدتها،لأن جل اهتمامنا يركز على معلقات الشعر العربي التي أثبتنا فيها الوحدة العاطفية والشعورية، فضلاً عن اختيارها وقائليها وآراء النقاد العرب قدماء ومحدثين مركزين على فكرة تعليقها التي شكلت محوراً رئيساً من قضايا النقد الجاهلي.

فإذا كان لهذه القصائد وحدة شعورية عاطفية لملمت موضوعاتها،واتبعت منهجها، فإن أمر التعليق هو المنحى النقدي المهم لهذه القاصائد وفكرة التعليق أكدها خلفاء بني أمية، وجاء حماد الراوية وجمع هذه القصائد، ومن ثم جاء ابن الكلبي فأكد تعليق القصائد على أستار الكعبة غير أن النقاد العرب في القرن الثالث أهملوا هذا المنحى فلم يذكروه لا بالسلب ولا بالإيجاب، ولم نجد من علمائه من يشير إلى فكرة التعليق على أستار الكعبة وهذا الإهمال وجد فيه نخبة من النقاد المحدثين ذريعة لإنكار التعليق على جدار الكعبة. ومن ثم أطل القرن الرابع الهجري وفيه عادت فكرة التعليق حيث أكّدها أحد علماء ذلك القرن وهو ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، إذ قال: "كان الشعر ديوان خاصة العرب والمنظوم من كلامها والمقيد لأيّامها والشاهد لأحكَامها، حتى لقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم

---

(1) الحماسة الصغرى، ص 18.

(2) مجلة الآداب البيروتية :13: عدد:6 حزيران 1967م.

openkandil.com

فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرّجة، وعلقتها بين أستار الكعبة، فمنهم من يقال: مذهبة امرئ القيس ومذهبة زهير، والمذهّبات السّبع وقد يقال: لها المُعلّقَات"[1]. ويتضح من كلام ابن عبدربه هذا أنه كان يقول بالتعليق وينص عليه صراحة.وقد تساءل بعض النقاد المحدثين عن مصدر رواية ابن عبدربه السابقة حول قصة تعليق تلك القصائد على أستار الكعبة.

ومن النقاد القدماء الذين أكدوا فكرة التعليق ابن رشيق القيرواني صاحب (كتاب العمدة) الذي قال: "وكانت المُعلّقَات تسمى المذهّبات، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب وَعُلِّقت على الكعبة"[2].

ويبدو أن الكتابة بماء الذهب تثير الشك لدى بعض النقاد الذين رأوا أن العرب لم تعرف الكتابة في ذلك العصر واتخذوا من تلك الحجة وسيلة لإنكار فكرة التعليق مع أن معرفة العرب بالكتابة أمرٌ لايحتاج إلى نقاش ولاجدال ولامراء.وما يهوّن علينا ذلك الشعرُ الجاهلي فقد أشار النابغة الذبياني إلى الكتابة المذهبة بقوله:

وأبدت سواراً عن وشومٍ كأنها بقية ألواح عليهن مذهبُ[3]

فالشاعر في هذا البيت يشبه الوشم ببقية ألواح مذهَّبة،فالألواح هي وسيلة رئيسة من وسائل الكتابة، وفي الوقت نفسه فإن تذهيب الكتابة أمرٌ مهمٌ عرفه العرب قبل الإسلام واتجه إليه الشعراء في تشبيهاتهم وصورهم الشعرية،فبيت النابغة وحده يشير إلى شيوع الكتابة وشيوع التذهيب الذي كتبت به المُعلّقَات.

وذكر عبد القادر البغدادي في خزانة الأدب أن العرب في عصر ماقبل الإسلام كان "يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يعبأ به، ولاينشده أحد، حتى يأتي مكة في موسم الحج، فيعرضه على أندية قريش، فإن استحسنوه رُوي، وكان فخراً لقائله، وعلّق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه، وإن لم

---

(1) العقد الفريد، ابن عبد ربه 137/1.

(2) العمدة 96/1.

(3) ديوان النابغة الذبياني، ص.

obeikandi.com

يستحسنوه طرح ولم يعبأ به"[1] ثم ذكر امرأ القيس في أنّه أول من علّق شعره في الكعبة،ومن ثم علقت الشعراء من بعده، و بلغ عدد من علق شعره سبعة وتلك الآراء لها شأن في تاريخ النقد الأدبي، ولاسيّما أننا إذا قرأنا كتابي (العقد الفريد) و(العمدة) لوجدناهما قد أحاطا بالنقد العربي القديم وبالشعراء وأخبارهم وأنسابهم، وقد لاقت هذه الآراء قبولاً من كبار كتاب القرنين الثامن والتاسع منهم: ابن خلدون، إذ قال: "اعلم أن الشعر كان ديواناً للعرب فيه علومهم وأخبارهم، وحكمهم، وكان رؤساء العرب منافسين فيه، وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده، وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشأن وأهل البصر لتمييز حوله حتى انتهوا إلى المباهاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم، وبيت إبراهيم، كما فعل امرؤ القيس بن حجر والنابغة وزهير وعنترة وطرفة وعلقمة والأعشى وغيرهم، من أصحاب المُعلّقَات السّبع،فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر على ماقيل في سبب تسميتها بالمُعلّقَات"[2].

وقد حظيت المُعلّقَات بدراساتٍ كثيرة وألّفت عليها شروح كثيرة ومتنوعة - كما ذكرنا - وأحيطت بدراسات محكمة وفكرة التعليق أمرها معروف لم يكن وليد الصدفة بدليل أن الملك من العرب كان إذا استجيرت له قصيدةٌ طلب منهم تعليقها قائلاً علقوا لنا هذه أي اكتبوها لتكون في خزانتي[3]، ويروي ابن جنّي خبراً عن حمّاد الراوية يذكر فيه أن النعمان أمر بنسخ أشعار العرب في الطنوج أي الكراريس " ثم دفنها في قصره الأبيض فلمّا كان المختار بن أبي عبيدة قيل له أن تحت القصر كنزاً فاحتفر فأخرج تلك الأشعار"[4] وهو بهذا يلمح إلى أن أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة.

---

(1) خزانة الأدب 137/1.

(2)مقدمة العلامة ابن خلدون، ص 36.

(3) ينظر: خزانة الأدب 137/1 وجمهرة أشعار العرب 1/ 97-98 والعمدة 96/1.

(4) الخصائص، ابن جني 388/1.

obeikandl.com

ويبدو أن حمّاداً ليس الجامع الأول لهذه المُعلّقَات، ولكن لايعني أنه قد جمعها بعد جهد سابق له لخلفاء بني أمية في هذا المضمار، فقد أعطوا لشعر ماقبل الإسلام عناية سواء في كتابته وحفظه أوروايته ونقده، وقد جاء في الخزانة أن معاوية بن أبي سفيان قال: "قصيدة عمرو بن كلثوم وقصيدة الحارث بن حلزة من مفاخر العرب، كانتا معلقتين بالكعبة دهراً"(1) وهذه الرواية من الروايات المهمة والرئيسةالتي نعتمد عليها في معرفة أمر المُعلّقَات وتعليقها على جدار الكعبة ولعبد الملك بن مروان عناية بجمع هذه القصائد " المُعلّقَات" وهذه العناية لاتقل قيمتها عن آرائه النقدية الأخرى، فقد روي عنه أنه طرح شعر أربعةٍ من شعراء المُعلّقَات وأثبت مكانهم أربعة(2).

وروي أيضاً "أن بعض أمراء بني أمية أمر من يختار له سبعة أشعار فسماها المُعلّقَات"(3) وهذه الأدلة تؤكد "معرفة القوم بأمر المُعلّقَات وكتابتها قبل حماد بدهر"(4) غير أن ذوق حمّاد هو الذي تحكّم في اختيار المُعلّقَات "ولابد أن تكون في ذهن حماد وهو ينتقي هذا الانتقاء أحكَام ومقاييس لمواصفات معيّنة تتعلق بشخصية المختار لهم وطبيعة تكوين القصيدة والبناء الذي كانت عليه، والطريقة التي استخدمت في ذلك، والموضوعات المتداخلة التي تعرضت لها وربما أحكَام أخرى لم تهتدِ إليها"(5).

ووقف على جانب إنكار التعليق فريق آخر كان في مقدمتهم ابن النّحاس الذي شرح القصائد التسع المشهورات، وإن كان غير ناكر التعليق بمعانيه المعنوية فقد قال: "واختلفوا في جمع هذه القصائد السبع فقيل إن العرب كان أكثرها يجتمع بعكاظ،فإذا استحسن الملك قصيدة قال: علقوها وأثبتوها في خزانتي. وأمّا قول من قال: إنها عُلّقت في الكعبة فلا يعرفه أحدٌ من الرواة، وأصبح ما قيل في هذا :إن

(1) خزانة الأدب: 37/1.
(2) م. ن، :1/ 137.
(3) خزانة الأدب: 137/1.
(4) تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام، الدكتور عادل البياتي وآخرون، 83.
(5) خزانة الأدب 137/1.

حماداً الراوية(95 – 185) لَما رأى زهد الناس في حفظ الشعر جمع هذه السبع وحضهم عليها، وقال: هذه هي المشهورات، فسميت القصائد المشهورة لهذا."[1].
وأكد ذلك أبو البركات الأنباري بقوله "ولم يثبت ما ذكره الناس من أنّها كانت معلقة على الكعبة"[2] وشاطره ياقوت الحموي رأيه هذا في ترجمته لحمّاد، وقد نجد انكاراً للتعليق في دراسات المستشرقين، فهذا نيكلسون الإنجليزي وهذا الألماني هنجستيرج ونولدكه وكليمان هبّار الفرنسي نجد صدى نكران فكرة التعليق في كتبهم[3] مع العلم أنهم لاينكرون جودتها ويميلون إلى أن هذه التسمية مستوحاة من معانٍ مجازية أخرى منها الشهرة والنفاسة.

وبغض النظر عن التعليق على استار الكعبة وعدمه فمن خلال دراستنا آراء النقاد- مع اختلاف آرائهم- فإنهم يتفقون على أنها قصائد مختارة من عيون الشعر العربي ومن المحدثين الذين أنكروا ذلك هو أحمد الحوفي[4]. وقد علل مصطفى صادق الرافعي رأي حمّاد بأن هذه التسمية استنبطت من الحديث الشريف "أعطيت مكان التوراة السّبع الطوال، وهي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس"[5].

غير أن الأستاذ طه أحمد إبراهيم كان أكثر تشدداً لهذا الموقف، إذ قال: "وليس من شك في أن هذه القصة لا أصل لها ـ أريد قصة الكتابة والتعليق ـ فصاحب العقد الفريد من رجالات القرن الرابع الهجري، ثم هو أندلسي فماذا منع المشارقة قبله من إيرادهم لها لو كانت صحيحة، كثير من المشارقة دوّنوا في النقد وفي الأدب، وفي أخبار الشعراء قبل القرن الرابع الهجري ولم يشر واحد منهم إلى شيءٍ

---

(1) شرح القصائد التسع المشهورات 682/2.
(2) نزهة الالباء، أبو البركات الأنباري، ص39.
(3) ينظر: تاريخ العرب الأدبي، ص 171.
(4) ينظر: الحياة العربية، ص 201-212، وقد قدم بين يدي بحثة أثنتي عشرة نقطةلإنكار فكرة التعليق على الكعبة.
(5) تاريخ آداب العرب 3 /189 وهناك اختلاف في السورة السابعة فقد تكون إحدى السور الثلاث (يونس، يوسف، الكهف).

obeikandl.com

من ذلك، ولفظ المُعلّقَات غير مذكور لا في طبقات الشعراء لابن سَلاَّم، ولا في الشعر والشعراء لابن قتيبة ولا في البيان والتبيين للجاحظ، ولا في الكامل للمبرّد وتلك كلها من أمهات كتب الأدب "[1] ويرى أن تأخر هذه القصة إلى عهد ابن عبد ربه تجريح لها طالما لم يشر لها أحد من قبله[2]. وقد وجّه في ذلك أسئلة كثيرة منها "من الذي اختار هذه القصائد؟ من الذي كتبها وعلقها؟ في أي زمن؟ وفي أي أحوال؟ وبحضور مَن مِن رجالات العصر؟ وماذا فعل الله لها بعد الإسلام؟ ثم تلك أمور كان يجب أن تعرف، ثم إذا كانت قد كتبت، فكيف يختلف العلماء في عددها وفي أصحابها على أن من العلماء من ينكرها، وأولهم ابن النّحاس المصري أحد شراح هذه القصائد"[3].

تلك آراء وأسئلة مهمّة في مضمار العمل النقدي ويبدو أن ما أوجزناه من الآراء التي أكدت فكرة التعليق جزء من الإجابة والرد على أسئلة الأستاذ طه أحمد إبراهيم. أما فيما يتعلق بأن السبب كان ابن عبد ربه لأنه كاتب أندلسي، وأنه أول من أظهر ذلك وطالما لم يشر إليها أحد من قبله على قوله فهذا أمرٌ غير مقبولٍ لأن هناك من أشار إلى ذلك ثم إن ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد تناول آراء نقدية سديدة كانت ومازالت إلى يومنا هذا تضيء صفحات البحوث والدراسات.

ويناقش المرحوم الدكتور عادل البياتي قضية التعليق ويرى" أن هذه القصائد لو كانت معلّقة حقّاً، ولو كان الناس حقّا مطلعين عليها، وكانوا يعرفون حقّاً مواضع تعليقها وأماكنها المحددة في الكعبة لما وجدنا هذا الاختلاف في العدد والاختلاف في تحديد الشعراء"[4] ولم يكتفِ بهذا بل ذهب يقول: "ومالنا نذهب بعيداً وبين أيدينا شروح القصائد وهي لاتنص على هذه التسمية مطلقاً، فشرح ابن الأنباري هو شرح القصائد السّبع الطوال، وشرح ابن النّحاس هو شرح القصائد

(1) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، طه أحمد إبراهيم، ص 8.
(2) م. ن، ص 8.
(3) م. ن، ص 8.
(4) تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام، ص 84.

obeikandl.com

التسع المشهورات، وشرح الزوزني هو شرح القصائد السّبع.. وشرح التبريزي هو شرح القصائد العشر"[1].

هذا هو رأي الدكتورالبياتي يتلخص في عدم قبوله بفكرة التعليق على جدار الكعبة. ولكنه يرى أن نفي خبر التعليق لم يقلل من قيمة القصائد كونها صورة واضحة القسمات للشعر. إذ إنه لم ينكر تسمية المُعلّقَات فقد جعلها عنواناً مصغراً لحديثه ورأى أن هذه التسمية تأتي من معنى المحبّة لأن هذه القصائد كانت محببة إلى الناس وقريبة إلى قلوبهم لذلك علقت بهم وأطلقوا عليها المُعلّقَات[2]، فالتعليق سواء أكان على جدار الكعبة أم في القلوب له قيمته الدلالية والفنية في الدراسات النقدية.

فإذا تأملنا هذه الآراء التي تنكر فكرة التعليق. فإننا نجد ابن النّحاس قد انفرد بهذا الرأي من بين النقاد القدماء على الرغم من أن فكرة التعليق دعمتها آراء من السابقين عليه والمعاصرين له والمتأخرين بعده. وإذا تأملنا آراء ابن النّحاس فإننا نجد فيها مايؤكد القول بالتعليق فعلى سبيل المثال قوله: "وقيل كان الملك إذا استجيدت له قصيدة الشاعر يقول: علقوها وأثبتوها في خزانتي"[3] ففي هذا النص دلالة واضحة على فكرة التعليق. وفي موضع آخر يقول ابن النّحاس: "فأمّا قول من قال: إنها علقت في الكعبة فلايعرفه أحد من الرواة"[4] فهذه المقولة تؤكد أن من القدماء من قال قبله: إنها علقت، ولكنه لم يجاريهم في ذلك. ومما يدل على أن وصف التعليق كان شائعاً وغالباً في عصر ابن النحاس وفي العصر الذي سبقه، غير أن أبا جعفر عند شرحه قصيدة الحارث بن حلزة قال: "ولايجوز أن يأتي بالفاء بعد بين، وقد ذكرنا شرح هذا في معلقة امرئ القيس"[5] فهذه الأدلة تكفي أن تكون شاهداً على فكرة التعليق وجاءت على لسان ممن لايؤمن بها.

---

(1) م. ن، ص 84.

(2) ينظر: تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام، ص 83.

(3) شرح القصائد التسع المشهورات 682/2.

(4) م. ن، 682/2.

(5) شرح القصائد التسع المشهورات 548/2

openkan.com

ومن الدارسين الذين عنوا بالمُعلّقَات درساً وتمحيصاً وعناية الدكتور بدوي طبانة وناقش فكرة التعليق بموضوعية وعلمية دقيقة في كتابه "معلقات العرب سيرةً وتاريخاً" وخرج بعدد من النتائج المهمة منها "إن تعليق الآثار النفيسة التي يحرص عليها على جدران الأماكن ذات القداسة والإجلال ليس بدعاً، فإن الأمم قديمها وحديثها تعودت أن تصون نفائسها في مثل تلك الأماكن المقدسة، والأفراد من أولي الحول والطول اعتادوا أن يتقرّبوا إليها بما يقدمونه من الهدايا والتحف، وقد يلتمسون بذلك الزلفى والمثوبة وبذلك جرت العادة في الجاهلية، وبقيت في الإسلام وكانت في العرب وغير العرب"(1) وقد عضّد ماذهب إليه بقول المسعودي: "كانت القرى تهدي إلى الكعبة أموالاً في صدر الزمان، وجواهر، وقد كان ساسان بن يابك أهدى غزالين من ذهب وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً، فدفن في زمزم، ولما فتح عمر بن الخطابﷺ مدائن كسرى، وكان مما بُعِثَ إليه هلالان، فبعث بهما فعلقا في الكعبة، وبعث عبد الملك بن مروان بالشمسيتين وقدحين من قوارير، وبعث الوليد بن عبد الملك بقدحين، وبعث الوليد بن يزيد بالسريرين والكرسي والهلالين وبعث أبو السفاح بالصفحة الخضراء وبعث أبو جعفر المنصور بالقارورة الفرعونية وبعث المأمون بالياقوتة التي تعلق كل سنة في وجه الكعبة في الموسم بسلسلة من ذهب..."(2).

ولاريب في أن تعرض هذه القصائد في سوق عكاظ، ونظراً لجودتها وقيمتها الفنية والموضوعية فإن أمر تعليقها على الكعبة أمرٌ مهم، وذلك لقداسة الكعبة في نفوس العرب، فضلاً عن أن الشعر في هذا العصر هو ديوان العرب، ولكن فكرة التعليق قد تكون آنية ينظر إليها العرب في المواسم حتى يدرك الناس مكانة هذه القصائد مع علمنا أن تعليق الأشعار والكتابات أصبح أمراً مألوفاً متعارفاً عند عرب ماقبل الإسلام، و في الوقت نفسه إن تعليق الشعر لم يكن حصراً على العرب، فقد كان لذلك نظائر في أدب الإغريق فإن القصيدة التي قالها (بندار) زعيم الشعر

(1) معلقات العرب دراسة نقدية تاريخية في عيون الشعر الجاهلي، الدكتور بدوي طبانة، ص 53.
(2) م. ن، ص53.

obeikandl.com

الغنائي اليوناني يمدح بها (أدياجوراس) قد كتبوها بحروفٍ من ذهب وعلقت على جدران معبد أثينا في لندوس، وللشاعر نفسه لحن يرفعه إلى المعبودآمون كتب فوق لوحة حجرية علقت في معبد هذا المعبود [1] لذلك لاتستغرب أن تكون عند العرب كتابة بماء الذهب لهذه القصائد الجياد. ومما يؤكد رأينا هذا مايروى عن معلقة جلجامش فقد قيل: إنها كتبت بأمر الملك "آشور بن بعل" ووضعت بقصره ونبه على هذا في تذييل لوحاته ثم ختمت بخاتمة، وكانت مودعة في معابدهم[2]. ولاريب في أن هناك من يذهب إلى أن عرب ماقبل الإسلام كانوا يعلقون كتاباتهم على جدار الكعبة ومن ذلك ماذكره محمد بن حبيب عن حلف خزاعة لعبد المطلب قال: "وكتبوا بينهم كتاباً كتبه لهم أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة.. ثم علّقوا الكتاب في الكعبة"[3].

فأمر التعليق "ليس مستحدثاً بل هو دليل على تعليق كان قبله، وليس مستبعداً قط أن تكون تلك القصائد مما علق في الكعبة وخصوصاً بعد أن ذكرت خبر التعليق عدد من المصادر الإسلامية"[4] وهناك دليل آخر يجب أن نمثل به وهو التعاهد والتواثق الذي تم بين قريش حينما أجمعت على بني هاشم وبني عبدالمطلب على ألاّ "ينكحوا إليهم ولاينكحوهم ولايبيعوهم شيئاً ولايبتاعوا منهم فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم"[5] ولاريب في أن تمكث هذه الصحيفة معلقة في

(1) ينظر المعلّقَات سيرة وتاريخاً، نجيب محمد البهبيتي، ص258.وتاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، ص 3.

(2) المعلّقَات سيرة وتاريخاً، ص 16.

(3) ينظر: بغية الوعاة والنحاة، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم 73/1-73، وينظر:معجم الأدباء 12/18، ومحمد بن حبيب هو محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي، علاّمة بالأنساب والأخبار واللغة والشعر والنثر مولده ببغداد ووفاته بسامراء سنة 245هـ.

(4) شرح المعلّقَات العشر، د. مفيد محمد قميحة، ص 2.

(5)السيرة النبوية، محمد عبد الملك بن هشام، تقديم ومراجعة صدقي جميل العطار، 3/2.

openkanar.com

الكعبة دهراً، فلما أخرجوها بعد ذلك وجدوا أن الأرضة لم تدع في الصحيفة إلاّ اسم الله[1].

إن تلك الآراء التي تحدثت عن المُعلّقَات وتعليقها هي التي ذاعت واشتهرت وأصبحت نوعاً " من الشيوع العام في الناس، وفي الزمن يتصل ماتصل التعليق، ويجري تحت أعين الشهود ماتجدّد الحاج وماتعاقب، فهو ليس ملكاً خاصاً لشاهد واحد ولاطائفة معينة من الناس، يضيف أصحاب السند فيها"[2].

والسؤال الذي يبقى أمامنا هو ماموقف رواة القرن الثالث الهجري، وعلمائهم من مصطلح المعلقات ؟ لماذا لم يتحدثوا عن تلك القصائد في مصدر من مصادرهم ؟ وأين هم من فكرة التعليق؟ إننا نقولها بصراحة إن رواة القرن الثالث وعلماءهم بدءاً بابن سَلاَّم ومروراً بالجاحظ وابن قتيبة وانتهاءً بالمبرد، قد تعرضوا لهذه القصائد ولشعرائها إلاّ أنهُ لم ترد عندهم تسمية المُعلّقَات ولاخبر التعليق على الرغم من أنهم لم يغفلوا إشارات الجودة للقصيدة المطوّلة عند تناولهم شعر الشاعر، ولنأخذ طرفة بن العبد مثالاً، إذ يقول عنه ابن سَلاَّم: فأما طرفة أشعر الناس واحدة وهي قوله:

"لخولة اطلال ببرقة ثهمد"[3].

وقال: أبو عبيدة "طرفة أجودهم واحدة"[4] وعندما تكلم ابن سَلاَّم على عنترة بن شداد قال:

"وله قصيدة وهي:

يادار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحاً دار عبلةَ واسلمي

وله شعر كثير إلا أن هذه نادرة فألحقوها مع أصحاب الواحدة"[5] وهي عند ابن قتيبة أجود شعره وكانوا يسمونها المذهبة[6] وأصحاب الواحدة هم الذين عرفوا

---

(1) تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، ص 64.

(2) م. ن، ص 64.

(3) طبقات فحول الشعراء 138/1والقصيدة في ديوان طرفة، ص 38-56.

(4) الشعر والشعراء/191.

(5) طبقات فحول الشعراء 152/1، والبيت في ديوان عنترة، ص 52.

(6) الشعر والشعراء 252/1، خزانة الأدب 419/1.

obeikandl.com

بأصحاب المُعلّقَات[1] ويقول صاحب الخزانة عنه" هو أشعر الشعراء بعد امرئ القيس ومرتبته ثاني مرتبة ولهذا أثنى بمعلقته وقال الشعر صغيراً".

وابن قتيبة تكلم أيضاً على شعراء المُعلّقَات ولم يستخدم وصف التعليق لهؤلاء أو لقصائدهم، إذ يقول عن امرئ القيس: "قال: لبيد أشعر الناس ذو القروح يعني امرأ القيس.."[2] ويقول ابن قتيبة "ومما يتغنى به من شعره قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزلِ"[3] وهذه القصيدة هي الذائعة في الأدب العربي باسم المعلقة.

ويقول عن طرفة: "هو أجودهم طويلة وهو القائل: لخولة أطلال ببرقة ثهمدِ- وله بعدها عشر حسن"[4].

وعن عمرو بن كلثوم يقول ابن قتيبة: "هو القائل: ألا هبي بصحنكِ فاصبحينا. وكان قام بها خطيباً فيما كان بينه وبين عمرو بن هند وهي من جيد شعر العرب القديم وإحدى السّبع ولشغف تغلِب بها وكثرة روايتهم لها قال بعض الشعراء:

ألهي بني تغلب عن كل مكرمةٍ قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

يفاخرون بها من كان أولهم ياللرجال لشعرٍ غير مسؤوم[5]

ويرى التبريزي أن أجود الشعراء "قصيدة واحدة جيدة طويلة ثلاثة نفر: عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وطرفة بن العبد"[6] فيما يرى أبو عبيدة أن عمراً بن كلثوم "أجودهم واحدة..."[7].

والذي يؤسفنا حقاً أننا لم نجد نصوصاً شعرية تؤيد فكرة التعليق سوى نموذجين شعريين: الأول لعنترة بن شداد وهو:

عُلّقْتُها عَرَضاً وأقْتَلُ قومَها زعماً لَعَمْرُ أبيكَ ليسَ بمزعَمِ[1]

---

(1) ينظر: طبقات فحول الشعراء، هامش 1 من ص 152.

(2) الشعر والشعراء 1.5/1.

(3) م. ن، 113/1.

(4) م. ن 185/1.

(5) الشعر والشعراء 236/1.

(6) شرح القصائد العشر، ص 125.

(7) جمهرة أشعار العرب:1/ 67.

والآخر للأعشى في قوله :

عُلّقْتُهـا عَرَضـاً وعلّقَـت رَجُـلاً ... غـيري وعلّـقَ أخـرى غيرهـا الرجـلُ

وعُلِّقتـــهُ فتـــاةٌ مـــا يحولـــها ... مـن أهلـها مَيِّـتٌ يهـدي بهـا وهِـلُ

وَعُلِّقـتني أخيـرى مـا تلائمنـي ... فاجتمـع الحـبُّ حُبَّـاً كلُّه تَبِـلُ[1]

ولانريد أن نذهب إلى ماذهب إليه بعض النقاد من أن كثيراً من النصوص التي تشير إلى فكرة التعليق على جدار الكعبة قد ضاعت فيما ضاع من شعر ماقبل الإسلام، مع أننا ندرك جيداً أن الجيد الفريد لاتفقده ضمائر الأمّة مهما مر عليها من صنوف الأحداث، فضلاً عن أمتنا العربية التي عرفت بذوقها ومحافظتها على تراثها ولغتها على حدٍّ سواء. آخذين بالحسبان أن نشأة المُعلّقَات قد ارتبطت بسوق عكاظ الأدبي الذي "أمتهُ فحول الشعراء تتبارى بأشعارها للفوز، ولم يكن للشاعر مجد أعلى من الفوز في هذا السوق.. وليس بين نائلي جائزة نوبل اليوم من يزيد فخره عن فخر أحد أو لئك الفائزين في عكاظ الجاهلية"[2] والتي كان لشعراء المُعلّقَات قصب السبق في الفوز ففكرة التعليق تزيد في قيمة تراثنا الأدبي فقبولها أهون على إنسان ماقبل الإسلام من وضع أصنام بالقرب من الكعبة وعبادتها. فهذه الآراء تزيد من قيمة المُعلّقَات المعنوية والفنية.

ويبدو أن ماقاله الدكتور ناصر الدين الأسد أقرب إلى الصواب، إذ قال: "إننا لانملك وسيلة قاطعة للإثبات أوالنفي ولانحب أن نعتسف الطريق ونقتحم كما يقتحم غيرنا، وكل مانستطيع أن نقوله إن الاعتراض الذي قدّمه القدماء كاعتراض ابن النّحاس والذي قدمه المحدثون لايثبت - في رأينا- التحقيق والتمحيص، فإذا ما استطعنا أن ننفي هذا الاعتراض بقي القول الأول بكتابة تعليقها سواء في الكعبة

---

(1) ديوان عنترة، ص 54. وعلقتها :عشقتها، عرضاً: فجأةً من غير قصد، اقتل قومها: جملة حالية، وقال: ابن الأنباري: معناه :علقتها وأنا اقتل قومها فكيف أحبها وأنا اقتل قومها، أم كيف أقتلهم وأنا أحبهاثم عاد وخاطب نفسه في الشطر الثاني: زعماً لَعَمْرُ أبيكَ ليسَ بمزعَمٍ:هذا فعل ليس يفعله مثلي.

(2) ديوان الأعشى،ص 107. الأبيات في ظاهرها علاقة حب عاطفية، وربا يكون هناك حب خفي للشاعر بمعلقته.

(3) تاريخ العرب المطول، فيليب حتى، ص 128.

obeikandl.com

أو خزانة الملك أو السيد قولاً قائماً، ترجيحاً لايقيناً، إلى أن يتاح له اعتراض جديد ينفيه أوسند جديد يؤيده ويثبته[1] ولكن لايعني أن الصفات حصرت على المُعلّقَات بل شملت قصائد الشعراء مقلين ومغمورين فابن سَلاَّم يقول عن دالية الأسود بن يعفر النهشلي "كان الأسود شاعراً فحلاً.. وله واحدة رائعة طويلة لاحقة بأجود الشعر، لو كان شفعها بمثلها قدمناه على مرتبته وهي:

نام الخلي وما أحسَ رقادي والهمُّ محتضرٌ لديّ وسادي

وله شعر جيد ولا كهذه"[2].

والحق أن هذه الآراء النقدية التي تميلُ إلى فكرة التعليق كانت لها الغلبة والترجيح، ولعل ثبوت الوثائق والكتابات على جدار الكعبة التي كتبها العرب أصبح مألوفاً، فكيف بالشعر الذي كان ديوان العرب وديدن حياتهم وسجل أخبارهم. وقد ثبت تعليقه على خزائن الملوك والجدران فليس الأمر غريباً أن يعلق على جدار الكعبة.

ويرى الدكتور محمد أبو الأنوار أنه: " يجب ألاّ يفزعنا كثيراً ضياع الغالبية العظمى من الأخبار والروايات حول التعليق، ذلك أن الإسلام كان حدثاً رهيباً على حياتهم حول الاهتمامات وغير مجرى الطبيعة الإنسانية في مسيرة الحياة، وكان العزوف عن مقدسات الجاهلية عبادة يتقرّب بها. فهل بقي لما كان في الكعبة من أصنام مكان بجانب عقيدة التوحيد؟! وهل بقي لما كان في الكعبة من معلقات مكان بجانب المعجزة الخالدة الباهرة: القرآن الكريم"[3].

ولا ريب في أن ماوصل إلينا من موروث الشعر الجاهلي يدل على نضوجه واستقراره بعد أن فحّص ومحّص من لدن النقاد، ولم يشكل ماضاع منه أي ضرر علينا، لأننا ندرك أن الجيد الفريد لاتفقده ضمائر الأمة مهما مرّ عليها من صنوف الأحداث، فضلاً عن أمتنا العربية التي عرفت بذوقها وحافظتها. كما أن هناك من

---

(1) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، الدكتور ناصر الدين الأسد، ص 17.

(2) طبقات فحول الشعراء 147/1 والبيت في ديوان الأسود بن يعفر، ص 25.

(3) من قضايا الأدب الجاهلي، ص 85.

obeikandi.com

الأخبار ماأكدت فكرة التعليق وبعد أن أنعمنا النظر في تلك الروايات ونظرنا إليها بموضوعية ارتأينا قبول تعليق قصائد من الشعر الجاهلي على جدار الكعبة.

obeikandl.com

المبحث الثاني

الحوليات والمنقحات والصنعة الفنية

خضعت مسألة الصنعة الفنية في الدراسات الحديثة لمصطلح"المدرسة الفنية" شأنها شأن الرواية في ذلك،فارتبط الحديث عن مدرسة الحوليات بمصطلح المدرسة الفنية التي تضم مجموعة من الشعراء الجاهليين الذين يتجهون إلى الصنعة والتجويد في أشعارهم فلم تدرس الصنعة عندهم بوصفها نمطاً فنيًّاً مستقلاً لشاعرٍ دون غيره وإنما هي سمة يشترك فيها شعراء هذه المدرسة.وقد استعملت هذه المفردة في ميدان الأدب الجاهلي، فهذا النابغة الذبياني يقول:

وأنـــي قـد أتانـــي مـا صنعتـــم وما رَشَّحْتـــمُ مِـنْ شعـــر بـــدرِ

وفي هذا السياق يقول الخليفة الراشد عمر بن الخطاب :" خير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته، يستميلُ بها الكريم، ويستعطفُ بها اللئيم"(1) ومثلما تباينت آراء الرواة والنقاد في تفسير المُعلّقَات تباينت كذلك في تفسير معنى (الحوليّات) وأكد ذلك الأصمعي بقوله"وكان زهير يسمي كُبْرَ قصائده الحوليات"(2).

وهو في هذا السياق لم يبين ماذا يعني بقوله عن زهير "كُبْرَ قصائده"،هل يعني بها طوال قصائده التي تحوي على أكبر عدد من الأبيات الشعرية،أم خيرة قصائده من الناحية الفنية،إلا أنه جعل من هذه القصائد التي أطلق عليها الحوليات شرطاً لفحولة الشاعر وتقديمه،ومعنى ذلك أنها بلغت غاية التجويد.وأيده في ذلك صاحب الخزانة الذي رأى أنّ "زهيراً كان ينظم القصيدة في شهر ويفحصُها ويهذبُها في سنة، وكانت تسمى قصائده حوليّات زهير"(3)، وقد أصبحت الحوليات ظاهرة أدبية في

---

(1) البيان والتبيين 2/ 101. ووردت المقولة في الكامل في اللغة والأدب " من أفضل ما أُعْطِيته العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته، يستميلُ بها الكريم، ويستنزل بها اللئيم" 1 / 84.

(2) الشعر والشعراء 1 /78.

(3) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي،قدم له ووضع هوامشه وفهارسه الدكتور محمد نبيل طريفي، إشراف الدكتور أميل بديع يعقوب 377367/1.

obeikandl.com

شعر ما قبل الإسلام وانتشرت بين عدد من الشعراء كأوس بن حجر، وزهير بن أبي سلمى وكعب بن زهير والحطيئة، ولعل هذا يرجع إلى درجة النضج التي وصل إليها أداؤهم الفني الذي يعد من أبرز مظاهر الصنعة في شعرهم، وقد برزت مظاهرها في حسن انتقائهم للكلمة وجودة نظمهم للعبارة،وشدة إتقانهم للصورة واستيفاء تفاصيلها الدقيقة ولاريب في أن هذا الأداء المتقن في جوانبه المختلفة لم يكن يأتي في اللحظة الأولى من لحظات الإبداع الشعري، إذ إن هذه اللحظة كانت مسؤولة عن إطلاق الفكرة أوالصياغة الأولى لقضية الشاعر منهم،وبعدها تأتي مسؤوليته الشاقة في صنع الأداء الفني الذي سيخرج فيه هذه الفكرة أو الصياغة الأولى للقصيدة.وكان لها أثرها في بناء القصيدة.. تلك هي ظاهرة (الحوليّات) القائمة على عملية (التنقيح) و التهذيب و التنقيب"[1]، فقد كان الشاعر يحرص على تشذيب قصائده وصقلها بحيث يجعل منها فنّاً خالصاً فهو لا ينفع في الشعر مع سجيته وإنما يحاول أن ينقحه، ويمعن النظر فيه، ويطيل حتّى تخرج القصيدة في ثوب قشيب، سداها البيان الخالص ولحمتها الكلمة المنتقاة المختارة، لذلك تبدو قصائده كالخرائد في أجياد كواكب حسان تتهادى في مشيتها زهواً واختيالاً، وقد كان"زهير بن أبي سلمى يسمّي كبار قصائده الحوليات" [2].ويقول الدكتور عبدالسلام عبد الحفيظ العال :"لو وجدنا في كل ذلك أن هؤلاء الجاهليين كان لهم خبرة بدلالات الألفاظ ومواطن القوة والضعف في استعمالاتها، وإلا فعلى أي أساس تقوم عملية التنقيح وإحالة النظر ؟ ومن هنا لا نشك في النقد الذي أُثر عن النابغة في نقده لحسان " [3].

ولهذا كان زهير معروفاً بالتنقيح، وكان موصوفاً بالمهذّب منعوتاً بالمنقح وسمّى شعره الحولي المحكك[4].

---

(1) تاريخ النقد الأدبي الدكتورعناد غزوان وآخرون، ص 51.

(2) البيان والتبيين 12/2. وينظر: الشعر والشعراء 78/1.

(3) تقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي، ص 63.

(4) ينظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق حنفي محمد شرف 3/ 4.1.

وقد وصف الأصمعي زهيراً والحطيئة وأشباههما بأنهم عبيد الشعر، وذلك لأنهم لم يذهبوا على عادة المطبوعين، وإنما كانوا ينقّحون الشعر ويهذبونه ويعيدون ثم يعيدون حتى تخرج القصيدة التي يريدون[1]. "والمطبوع من الشعراء من مسح بالشعر واقتدر على القوافي، وأدراك صدر بيته عَجُزَه وفي فاتحته قافيته وتبينَ على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة، وإذا امتُحِن لم يتلعثم ولم يتزحّرْ"[2].

غير أن الأصمعي يرجع الصنعة إلى عهد طفيل الغنوي الذي وصفه بالمحبر مشيراً إلى أستاذيته لهذه المدرسة فقد قال: "أخذ كل الشعراء من طفيل حتى زهير والنابغة"[3] وقال: مؤكداً ذلك " كان طفيل أكبر من النابغة، وليس في قيس فحل أقدم منه "[4] أما النص القديم الصريح الذي يدلُّ على أسبقية طفيل لزهير ما جاء في كتاب العمدة" وكان الحطيئة راوية زهير، وكان زهير راوية أوس بن حجر وطفيل الغنوي جميعاً"[5] ويقول في الموضوع نفسه " وطفيل عندي في بعض شعره أشعر من امرىء القيس"[6] وهذا التفضيل يرجع في الأساس إلى الصنعة، وقال: " شعر لبيد كأنه طيلسان طَبَرّ أي أنه جيد الصنعة، ولكن ليس له حلاوة"[7].

وقد كان الشعراء يحبّذون عملاً مثل هذا بل ويمدحون صاحبه فهذا الحطيئة يصف خير الشعر بأنه "الحولي المنقح المُحَكَّك" وهو بهذا يلمح في قوله (الحولي) إلى الحول وهو مدة طويلة لإخراج القصيدة ثم يردف قوله بـ (المحكك)، وكأنه يخرج لنا قطعة من الجوهر الأصيل. و هذا دليل على أن عناية الشعراء بأشعارهم كانت أمراً معروفاً وصل حد الإفراط، وهذا حدا بالأصمعي إلى أن يصفهم بـ (عبيد الشعر) في قوله: "زهير والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر، لإنهم نقحوه

---

(1) ينظر: فحولة الشعراء، ص 49، والشعر والشعراء 78/1.

(2)الشعر والشعراء 1 /90.ويتزحر: من الزحير، وهو إخراج الصوت أوالنفس بأنين عند عمل أو شدّة.

(3) ينظر: فحولة الشعراء، ص 49، والشعر والشعراء 78/1.

(4)الأغاني 35/15.

(5) العمدة 198/1.

(6) فحولة الشعراء، ص 1.

(7) الموشح، ص 71.

obeikandl.com

ولم يذهبوا مذهب المطبوعين، وكان الحطيئة يقول: خير الشعر الحوليُّ المنقَّحُ المحكَّكُ "(1) ويقول أيضاً: " نقَّحوا القوافي فإنها حوافر الشعر"(2).

غير أن تغليب هؤلاء الشعراء شعرهم لا يعني أنهم غير مطبوعين، واهتمامهم بشعرهم لا يعني أنه صنعة، فهو ملكة قبل كل شيء، ومن ثم أرادوا تجويده وتنقيحه وتهذيبه، وهذا بدوره دفع بعض النقاد القدماء أن يصف الشعراء بالمتكلفين، فابن قتيبة يرى أن المتكلف "هو الذي قوّم الشعر بالثقاف، ونقَّحه بطول التفتيش وأعاد فيه النظر بعد النظر، كزهير والحطيئة"(3). فابن قتيبة في قوله هذا يجمع بين التكلف والصنعة وفي الوقت نفسه يؤكد أن هؤلاء قد بذلوا في شعرهم أكثر من الموهبة فزادوا في صنعهِ بدليل تسميته بالشعر الحولي.ويوضح ابن قتيبة أسلوبه في تمييز الشاعر المتكلف من الشاعر المطبوع حين يوازن بينهما فيقول: " وتتبيَّن التكلف في الشعر أيضاً بأن ترى البيت فيه مقروناً بغير جاره، ومضموماً إلى غير لِفْقِه، ولذلك قال عمر بن لجاء لبعض الشعراء: أنا أشعر منك، قال: وبما ذلك ؟ فقال: لأني أقول البيت وأخاه،ولأنك تقول البيت وابن عمه"(4).

وهو لا يكتفي بذلك بل ذهب إلى أن معرفة الشعر المتكلف ليست معضلة أمام أصحاب العلم والنظر السديد، لما كثر فيه من ضرورات شعرية، فقد قيل يجوز للشاعر مالا يجوز للناثر وربما هذه هي التي جعلت ابن قتيبة يقول: " والمتكلف من الشعر وإن كان جيداً مُحكماً فليس به خفاءٌ على ذوي العلم، لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكر وشدة العناء ورشح الجبين، وكثرة الضرورات، وحذف مابالمعاني حاجةٌ إليه، وزيادة ما بالمعاني غِنًى عنه"(5).

---

(1) الشعر والشعراء 1/ 78.

(2) الرسالة الموضحة، ص 42.

(3) الشعر والشعراء 78/1.

(4) م. ن 1 / 90.

(5) الشعر والشعراء1 / 88.

obeikandl.com

ومن قراءتنا لهذه الآراء نلمح أن ابن قتيبة يؤكد أن مصطلحي التكلف والصنعة صنوان، و قد جمع بينهما وهذا الرأي أخذت به الدكتورة هند حسين طه وقالت: إن " التصنع هو التكلف في الشيء وقد يكون تكلفاً حسناً غرضه التزيين وإظهار السمات الحسنة. وقد يكون ممجوجاً، يخرج عن الحد المصنوع إلى الغث المستكره"(1).

ويبدو أن هذا أقرب إلى الصواب لأن الشاعرالذي يمضي في تنقيح قصيدته عاماً كاملاً خوفاً من التعقب فهو بالتأكيد قد تكلف، ولكن نصه الشعري يختلف عن النص المرتجل الذي فرغ منه صاحبه في ساعة أولية. والجيد أن ابن قتيبة عمد إلى تقسيم الشعر إلى أربعة أضرب: ضرب حسن لفظه وجاد معناه مثل قول أوس بن حجر:

أيتها النفس أجملي جزعا ... إن الذي تحذرين قد وقعا(2)

وقول أبي ذؤيب الهذلي:

والنفس راغبةٌ إذا رغبتها ... وإذا تردُّ إلى قليل تقنعُ(3)

وضربٌ حسن لفظه ولم يجد معناه، ومثّل ابن قتيبة بأبيات لعقبة بن كعب بن زهير.

فلما قضينا من منى كل حاجةٍ ... وَمَسّحَ بالأركان من هو ماسح

وشدّت على حدب المهارى رحالنا ... ولم ينظر: الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطح(4)

---

(1) النظرية النقدية عند العرب، ص 163.

(2) م. ن 1 / 65. والبيت في ديوان أوس بن حجر، ص54.

(3) م.ن1/67.والبيت في ديوان أبي ذؤيب الهذلي، ص 145. وديوان الهذليين، 3/1.

(4) ينظر: الشعر والشعراء 66/1 والمرجح أن الأبيات ليزيد بن الطثرية، ينظر: ديوانه صنعة الدكتورحاتم الضامن، ص 64.

obeikandl.com

وضرب جاد معناه وقصرت ألفاظه، ومثّل لذلك بقول لبيد:

مـا عاتـب الحـر الكـريم لنفسـه والمـرء يصلحه الجليسُ الصالح[1]

وضرب تأخر لفظه وتأخر معناه ومثل لذلك بأبيات للأعشى وأخرى للخليل بن أحمد الفراهيدي، وقدوضع شعر العلماء في هذا الضرب وقد علق على أبيات للخليل قائلاً:"وهذا الشعر بيَّن التكلف رديء الصنعة، وكذلك أشعار العلماء ليس فيها شيء جاء عن إسماحٍ وسهولة، كشعر الأصمعي وشعر ابن المُقفَّع، وشعر الخليل، خلا خلف الأحمر فإنه كان أجودهم طبعاً وأكثرهم شعراً"[2] فابن قتيبة في هذا التقسيم فرق بين التكلف والصنعة. أما عن وضعه شعر العلماء في ضربه الأخير الذي قل لفظه ومعناه، فقد وضع الدكتور عثمان موافي مسوغاً لذلك، إذ قال:"والواقع أن ابن قتيبة على صواب حين أحس أن شعر الشعراء يختلف عن شعر العلماء، وذلك لأن العالم تغلب عليه نزعة الفهم والتعليل لذا يبدو شعره وكأنه صادر عن العقل لا عن الوجدان."[3] ويرى أن" الشعر ليس لغة عقلية، بل لغة وجدانية، والشاعر الصادق هوالذي يحسن التعبير عما يحس ويشعر خلال وجدانه، فتأتي صياغته الشعرية معبرة بصدق عن عواطفه وانفعالاته في لغة إيحائية"[4] وهذا قد لا يقبل به بعض النقاد، لأن هناك من رأى أن الفرق بين المصطلحين بيَّناً، فالدكتور محمد زغلول سلام يحدد الفرق بين المصطلحين في قوله:" ففرقٌ بعيدٌ بين الصنعة والتكلف، إذ في الصنعة قدرة وحنكة وجمال، وفي التكلف قصوروعدم اكتمال وقبح"[5] أو يمكن أن نقول أن الصنعة تطلق على

(1) الشعر والشعراء 1 /68 والبيت في ديوان لبيد، ص 357.

(2) الشعر والشعراء 1 / 70.

(3) دراسات في النقد الأدبي، ص 96.

(4) م. ن، ص 96.

(5) تاريخ النقد الأدبي والبلاغة، حتى القرن الرابع الهجري، الدكتور محمد زغلول سلام، ص 144.

obeikandl.com

التكلف الجيد في حين يبقى التكلف الآخر الذي ذكره الدكتور سلام يبقى في دائرة التكلف الغث المستكره.

والتكلف في الشعر لايقتصر على ذوي الموهبة الشعرية المتواضعة فحسب، بل إن هناك من الشعراء الفحول الذين عرفوا بالطبع وسرعة البديهة قد عانوا ماعانوا من التكلف فلم يكن الشعر يسيراً عليهم في كل حين، وقد" قال الفرزدق :" أنا أشعر تميم (عند تميم) وربما أتت علي ساعة ونزع ضرس أسهل علي من قول بيت"[1] كذلك مادار بين حسان بن ثابت وابنته، فقد جاء في المذاكرة في أخبار الشعراء خبر مؤداه أنه "كان لحسان بنية شاعرة لم تذكر، وقيل: إن حساناً أَرِقَ ذات ليلةٍ، فعنَّ له أن يقول الشعر، فقال:

متاريك أذناب الأمور إذا اعترتْ أخذنا الفروعَ واجتنينا أصولها

ثم أرتجَّ عليه فقالت له ابنته: كأن قد أرتج عليك ياأبتي ؟ قال: نعم.: فقالت هل لي أن أجيز عنكَ ؟ قال: وهل عندك ذاك ؟قالت: نعم، قال فافعلي، فقالت:

مقاتيل بالمعروف، خرسٌ عن الخنا كرامٌ يعاطونَ العشيرةَ سولها

فحمي الشيخ فقال:

وقافيةٍ مثل السنان رزيتها تناقلت عن أفقَ السماء نزولها

فقالت :

يهاب الذي لاينطق الشعر مثلها ويعجز عن أمثالها أن نقولها[2]

وقد حدد ابن قتيبة أوقاتاً للشعر، فقال: " وللشعر أوقاتٌ يسرع فيها أتيُّه ويسمح فيها أبيُّه. منها أول الليل قبل تغشِّي الكرى، ومنها صدر النهار قبل الغداء، ومنها يوم شرب الدواء ومنها الخلوة في الحبس والمسير "[3] وفي الوقت نفسه يقول

---

(1) الشعر والشعراء 1 /81.

(2) المذاكرة في القاب الشعراء، ص 63. 64.والأبيات في ديوان حسان، صً 329 مع اختلاف يسيرفي الرواية.

(3) م. ن 1 / 81.

opelikanali.com

"وللشعر دواع تحث البطيء، وتبعثُ المتكلفَ، منها الطمع،ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب، ومنها الغضب "[1].

فالصنعة قد وضحها ابن سنان الخفاجي عندما قال عن زهير: "إنه عمل سبع قصائد في سبع سنين، وكان يسميها الحوليات ويقول خير الشعر الحولي المحكك، والرواة كلهم يجمعون على هذا.. وإذا فضلوا شعر زهير قالوا: كان يختار الألفاظ ويجتهد في إحكام الصنعة وإذا وصفوا الحطيئة شبهوا طريقته في الشعر بطريقة زهير"[2].فهذه المقولات جميعها تؤكد أن لفظة الصناعة تدل على المهارة الفنية ومن النقاد الذين استعملوا المصطلح قدامة بن جعفر وابن طباطبا العلوي والآمدي وأبو هلال العسكري وقد جعله عنواناً لكتابه (الصناعتين)، وابن رشيق و غيرهم[3].

ونجد أن الجاحظ لم يعب على هؤلاءِ اهتمامهم بشعرهم بل بيّن أن شعر المدائح تلازمه الصنعة التي تثبت جودتها في الأداء الفني أمّا ما عدا ذلك من الشعر فإنه ملازمٌ للطبع لذلك، قال: إن " من تكسَّبَ بشعره والتمس صلات الأشراف والقادة وجوائز الملوك والسادة في قصائد السماطين وبالطّوال.. لم يجد بّداً من صنيع زهير والحطيئة واشباههما، فإذا قالوا في غير ذلك، أخذوا عفو الكلام وتركوا المجهود، ولم نرهم مع ذلك يستعملون مثل تدبيرهم في طوال القصائد في صنعة طوال الخطب"[4].

والحق أن موضوع القصائد المنقحة كان له حيّزٌ في صفحات النقد الأدبي قديمه وحديثه بما يعرف بالطبع والصنعة، إلاّ أنه اتفق أصحابه على أن الفن المتميّز هو الفن القائم على " فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض"[5]. وهذا مانجده في قصيدة سويد بن أبي كاهل التي أولها:

---

(1) م. ن 1 /78.

(2) سر الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي 282-283.

(3) ينظر :نقد الشعر، ص 18. وعيار الشعر، ص 5، 121والموازنة 1/ 425،والعمدة 117/1.

(4) البيان والتبيين 13/2-14.

(5) العمدة 129/1.

obeikandl.com

بســـطت رابعـــة الحـــبل لنـــا فوصلنـا الحبـل منـه مـا اتسـع[1]

وله شعر كثير، ولكن برزت هذه على شعره.[2]

وقدحظيت هذه القصيدة بشهرة واسعة عند الأدباء والرواة، وكانت العرب تفضلها وتقدمها وتعدها من حكمها، وكانت في الجاهلية تسمى اليتيمة، وقد فضلها الأصمعي وقدمها وأعجب بها النقادالمحدثون، ومنهم الدكتور طه حسين الذي قال: "إن هذه المطولة البديعة من أروع الشعر العربي وأرقاه، ومن أعذبه وأحسنه موقعاً في السمع ومسلكاً إلى النفس، وإذا كان شعر صاحبها قد ضاع فإنها تكاد تغني عما ضاع من شعره، لأنها تصور مذهبه في الشعر، وحظه من إجادته تصويراً قوياً واضحاً، وذلك لأنها جمعت ألواناً من فنون الشعر التي كان يطرقها القدماء وأكبر الظن أنها جمعت فنون الشعر التي كاد يطرقها سويد نفسه. "[3] والشاعر في نظرنا كما نظر إليه الدكتور طه حسين :" قوي الحس جداً، دقيق الشعور جداً، وهو كذلك مالك لأمر الشعر، يصرفه كما يحب لا يجد في تصريفه مشقة ولا جهداً... وإذا جاز أن نتخذ قصيدته هذه نموذجاً لشعره الذي ذهب عنا، فقد كان الشاعر مطيلاً، لأن قصيدته هذه قد نيفت على المائة، وقد كان الشاعر سهل اللفظ في غير إسفاف ولا ابتذال، وقد كان الشاعر لا يتحرج من اصطناع الكلمات التي تغرب بعض الشيء، إذا أطال القصيدة أو دفعته القافية إلى شيء من البحث والتفتيش عن الألفاظ "[4].

وقد ركز الشاعر في هذه القصيدة على وصف حبيبته وجمال وجهها ونقائه وإشراقه مستمداً عناصر صورته المبدعة مما وعته ذاكرته، ويبدو أن الشاعر اكتوى بنار الفراق وأضناه بُعد حبيبته عنه فلم يملك سوى ذكرياته العذبة معها،

---

(1) ديوان سويد بن أبي كاهل اليشكري، جمع وتحقيق شاكر عاشور، مراجعة محمد جبار المعيبد، ص 23.

(2) طبقات فحول الشعراء 1/.

(3) في الأدب الجاهلي، ص443.

(4) م. ن، ص444.

obeikandi.com

وقد شطحت بها النوى فلم يعد يراها إلا من خلال طيفها الذي كان يقطع إليه الفيافي والقفار، ويلم به مهيجاً للشوق ومجدداً للذكرى [1] فيقول في أبيات منها :

تمنح المرآة وجهاً واضحاً	مثل قرن الشمس في الصحو ارتفعْ
صافي اللون وطرفاً ساجياً	أكحل العينين ما فيه قمعْ
وقروناً سابغاً أطرافها	غللتها ريحُ مسكٍ ذي نفعْ
هيَّج الشوقَ خيالٌ زائرٌ	من حبيبٍ خفرٍ فيه قدعْ
أرَّق العينينَ خيالٌ لم يدع	من سليمى،ففؤادي منتزعْ [2]

فهذه القصيدة ذاعت شهرتها وانتشرت ولم تنقص قيمتها الفنية والموضوعية عن المعلقات في أي شيء فهي " تتناول عدداً كبيراً من الأغراض الشعرية شأنها شأن معلقات الشعر الجاهلي و مطولاته وأول تلك الأغراض بطبيعة الحال الغزل، والشاعر يبدأ مطولته بالغزل حيث يذكر علاقته الودودة بحبيبته التي كانت تصله كأحسن ما يريد ولا تبخل عليه بحبِّها وأي وصل أجمل مما عبر عنه، وصوره بهذه الصورة الرائعة في مطلع قصيدته [3] الذي ذكرناه.

فالطبع والملكة وفطنة الشاعر وطموحهِ ملكات وصفات تجسدت بفحول الفحول المشهورين من الشعراء الجاهليين، وإن كان سويد بن أبي كاهل شاعراً مقلاً فقصيدته هذه ارتقت به أن يكون في مصاف المجيدين ذلك كلّه أهّلَ الشاعر أن يثني كبارُ النقاد على قصيدته، أما زهير فقد تبوأ " زعامة مدرسة الصنعة الفنية وريادتها؛ لأن طبع زهير وصنعته وثقافته التي أثرتها روايته للشعر، فضلاً عن مكانته بين قومه وقربه من عصر صدر الإسلام ذلك كله جعله يفيد من خبرة سابقيه وتجاربهم، ويبدو أن هذا جعله على رأس مدرسة الصنعة، إذ إن شعره كان "نتاج مرحلة متأخرة في العصر الجاهلي، فبعد أن استقرت فيها القصيدة الجاهلية

---

(1) ينظر: الأدب الجاهلي، خليل أبو ذياب، ص174 -175.

(2) ديوان سويد بن أبي كاهل، ص 24.

(3) ينظر:الأدب الجاهلي، خليل أبو ذياب، ص174.

obeikandi.com

من ناحية المبنى والمعنى توّجت هذه المرحلة بقصيدة زهير التي بلغ فيها النمط الجاهلي الموروث قمّة الاستقرار والنضج"[1].

وكما كان أهل عصر ما قبل الإسلام يطلقون ألقاباً على الشعراء الكبار فإنهم كانوا يسمون القصائد التي ذاعت واشتهرت أسماء تصور إعجابهم بها وإجادة أصحابها في نظمها مثل اليتيمة[بر] والمنصفة[تر] والسموط[يز]. والبتارة[سم]والمحكمة وغيرها. ومما لا شك فيه أن العرب قد استعملوا ألفاظاً لتعبر عن فكرة الصنعة ومفهومها ، فقد جاء هذا المصطلح في شعر الجاهليين وفي قول النابغة الذبياني على وجه التحديد:

وحسبك أن تهاض بمحكماتٍ يمرُّ بها الروي على لساني [شم]

وانتقلت اللفظة بدلالتها العامة التي ترتبط بالصناعة إلى دلالات معنوية خاصة منذ العصر الجاهلي، معبرة عن فكرة إتقان صنعة الشعر وأحكامها وقد استعمل العرب ألفاظاً عديدة لتعبر عن فكرة الصنعة منها: " المنقحات" وهي القصائد التي أعاد فيها أصحابها ونقحوها وشذبوها وثقفوها وهذبوها ،"والمجمهرات" "ويراد بها محكمة السبك" [لم] والحوليات التي قضى الشاعر في إعدادها حولاً كاملاً، وترتبط هذه المصطلحات بوصف القصائد من ناحية الصنعة والتنقيح والتثقيف والتشذيب، وقد توسع النقاد في استعمال المصطلح فوصفوا الشعر به، فقد قال ابن طباطبا العلوي :" فمن الأشعار أشعار محكمة متقنة أنيقة الألفاظ" ولا شك في أن المنقحات من مرادفة الحوليات بدليل أن هذه

---

(1) زهير بن أبي سلمى بين ناقديه، عدوية حياوي الشبلي، رسالة ماجستير،ص 186.

(2) الأغاني 17/21.

(3) الاصمعيات 117.والمنصفة هي القصيدة التي يمدح فيها الشاعر أعداءه ويذكر ما أوقعوا بقومه وما أوقع قومه بهم.

(4) البيان والتبيين 9/2.

(5) الأغاني 155/15 . 156.

(6) ديوان النابغة، ص 154

(7) جمهرة أشعار العرب 6/1.

openkanal.com

الظاهرة لم تفت الجاحظ، وكانت إشارته إلى تفسير أصل تسمية الحوليات تتجلّى في قوله: " ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتاً وزمناً طويلاً يردد فيها نظره، ويحيل فيها عقله ويقلّب فيها رأيه، اتهاماً لعقله، وتتبعاً على نفسه، فيجعل عقله زماماً على رأيه، ورأيه عياراً على شعره، إشفاقاً على أدبه، وإحرازاً لما خوّله الله من نعمته.وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليّات والمقلّدات والمنقحات، والمحكّمات ليصير قائلها فحلاً خنذيذاً وشاعراً مفلقاً.."[1].وبهذه المقولة يؤكد الجاحظ إلى قدم التسمية من دون أن يرى هناك تفاوتاً بين الحوليات والمنقحات والمحكمات.فالشاعر يسعى إلى تجويد شعره وتنقيحه وتهذيبه وقد ذكر ابن ميَّادة لفظة المحكمات في شعره بدلالتها الاصطلاحية فقال:

فإن أهلكَ فقد أبقيت بعدي قوافي تعجب المتمثلينا

لذيذات المقاطع محكمات لو ان الشعر يلبس لازدرينا[2]

ولا ريب في أنه يمر على بيت من أبيات قصيدته فيهذّب ويغربل فوقفته تستدعي أن يعيد النظر فيما قال حتى تخرج قصيده كلها مستوية في الجودة وتبلغُ أعلى مراتب الإبداع، إذ إن الأسلوب كما يقول المسدّي "اختيار واعٍ يسلّطه المؤلف على ما توفره اللغة من سعَةٍ وطاقات"[3] ولا ريب في أن عملية الإبداع قد كونت مدرسة

---

(1) البيان والتبيين 9/2.والمحكمات لفظة جاهلية انتقلت بدلالتها العامة التي ترتبط بالصناعة إلى دلالة معنوية معبرة عن فكرة إتقان صناعة الشعر وأحكامها. وقد سمّى الأعشى القصيدة المحكمة حكيمة،إذ قال:

وغريبة تأتي الملوك حكيمةً قد قلتها لُيقال من ذا قالها

والبيت في ديولن الأعشى، ص 77.

وقد توسع ابن سلام فوصف شعراء هذه القصائد بأنهم "محكمون" وذلك بقوله وهو يقدم شعراء الطبقة السابعة وهم سلامة بن جندل وحصين بن الحمام والمتلمس والمسيب بن علس فقال عنهم"أربعةُ رهطٍ محكمون مقِلّون وفي أشعارهم قلّةٌ فذاك الذي أخرهم. طبقات فحول الشعراء 1/ 150.للاستزادة عن تطور هذا المصطلح ينظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز، ص 122، وعيار الشعر، ص 7.

(2) البيان والتبيين 22/1 والبيت في شعر ابن ميادة.

(3) الأسلوب والأسلوبية، الدكتور عبد السلام المسدي، ص 75.74.

obeikandl.com

إبداعية في العصر الجاهلي اعتمدت على الصنعة وإن هذه المدرسة قد "استمرت بالنمو والتطوير في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي وكأنها اتجاه شعري له أنصاره ودعاته"[1].

ولم تقف عند ذلك الحد بل واكبت العصور اللاحقة بعد أن أُتيح لها ما أُتيح من الإمكانات التي وصل بها الأمر إلى الإفراط والغلو في العصور.

ولا غرو في أن تعرف المدرسة بـ (مدرسة زهير)، إذ اتخذ أمر الاستغراق في شعره "طابعاً بعينه غلب على صوره الشعرية ومعانيه.. وهو استغراق هذه المعاني والصور الشعرية واستنفاذها، وهي خاصيّة فنية كانت تميّز شعره من شعر غيره"[2]. ويبدو أن نفسه الطويل واجتهاده في تجويد فنّه مكّناه من ريادة هذه المدرسة نفسها بدليل قول الأصمعي الذي ذكرناه سابقاً. ولم يكن زهير والحطيئة وحدهما اللذين اهتما بشعرهما فثمة شعراء آخرون دأبوا على تثقيف شعرهم.

فهذا سويد بن كراع العكلي يشبه قوافي شعره بسرب حيوان الوحش الأكبر ويريد بها الأبيات الشعرية، ويقصد بها القصيدة، وفي الوقت نفسه يعبر عن مدى تنقيحه ومكابدته في الاختيار فهو يقول:

أبيتُ بأبواب القوافي كأنما ... أصادي بها سِرْباً من الوَحشِ نُزَّعا
أُكالِئُها حَتّى أُغرّسَ بعدما ... يكون سُحَيْراً أو بعيداً فاجمعا
عواصي إلاَّ ما جعلت وراءها ... عصا مربدٍ تغشى نحوراً وأذرعا
أهبت بغر الآبدات فراجعت ... طريقاً أملّتهُ القصائدُ مَهْيَعا
بعيدة شأو لا يكاد يردّها ... لها طالباً حتى يكلَّ ويظلعا
إذا خفت أن تروى عليَّ رددتُها ... وراء الترامي خشيةً أن تطلعا
وجشمتني خوف بن عفان ردَّها ... فثقفتها حولاً حريداً ومربعاً

(1) أصول نظرية نقد الشعراء عند العرب، الدكتور عناد غزوان، ص 14.

(2) قضايا الشعر في النقد العربي، الدكتور إبراهيم عبد الرحمن، ص4.

obeikandl.com

وقد كان في نفسي عليها زيادة فلم أرَ إلاّ أن أطيعَ وأسمعا[1]

ونجد ان كلمة (حول) قد كانت بين كلمات القصيدة وهذا يؤكد لنا أن مصطلح (الحوليّات) لم يكن حصراً على آراء النقاد طالما وقد ذكره الشعراء انفسهم، وفي قصيدة سويد بن كراع نلمح مدى الاهتمام بتصحيح الشعر وتهذيبه وصقله حتى يستوي شعراً تتناقله الرواة ويفخر به الشاعر.

ويبدو أن سويداً لم يكن من المحككين أو من عبيد الشعر بأبياته هذه وإنما أراد أن يصوّر حال الشاعر عامة في معاناة قول الشعر لا تحليله، وتركه حولاً كاملاً يعيد النظر فيه لأن إعادة النظر في الشعر (هو شأن زهير وأضرابه، إذ لم يكن يستدعي معاناتهم بل المعاناة كانت في إنشائه لا في تحبيره وتحليله. وسويد لم يقصد بهذه الأبيات تحليل الشعر بل في معاناة إنشائه اللهم إلا في نهاية أبياته التي ذكر فيها كلمة (حول) وربما كان هذا في بعض شعره لا عامته كزهير وإلا لذكر كما ذكر زهير.ومن اللافت للنظر أن مصطلح التنقيح عرف لدى الشعراء قبل النقاد، حكي عن الحطيئة أنّه قال: "نقحوا القوافي فإنها حوافر الشعر"[2]، وقد شغل مساحة كبيرة في كتابات القدماء فذكر الجاحظ "القصائد المنقحات"[3] وجعل ابن قتيبة "التنقيح سمة المتكلف في شعره"[4]. وهذا المصطلح يؤكد تهذيب الشعر وتنقيته من العيوب.

وقد ذكره شعراء عصر ما قبل الإسلام، فهذا أبو وجزة السعدي يقول:

طوراً يجوب العقد من نقح كالسند أكابده هيم مراكيل

(1) الشعر والشعراء 635/2، والأبيات في ديوان، سويد بن كراع العكلي،ص 94 – 95 وأصادي: أداري ونزع جمع نازع وهو الغريب، أكالئها: أراغبها،أهبت بها: دعوتها. الآبدات: المتوحشات. أملته: سلكته. والمهيع: الطريق الواسع.

(2) الرسالة المؤضَحة، الحاتمي، ص 42.

(3) البيان والتبيين 9/2.

(4) الشعر والشعراء 77/1، للاستزادة ينظر: الموشح 199، والوساطة 413 وكتاب الصناعتين 3. والعمدة 129/1، 211.

obeikandl.com

وكذلك في الأمثال حيث جاء (استغنت السلاءة عن التنقيح)، وهو مثل يضرب لمن يحاول أن يزيد في تجويد شيء هو في غاية الجودة سواء أكان شعراً أم نثراً أو غير ذلك مما هو مستقيم[1]، بعد أن أضاف أساليب جمالية وفنية للنص.

وقد برز من شعراء الحوليات زهير والحطيئة وكعب بن زهير، ويؤكد ذلك ما جاء في الأغاني من قول الحطيئة لكعب "قد علمت روايتي لكم أهل البيت وانقطاعي إليكم، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً بعدك فإن الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع. فقال كعب:

فمن للقوافي؟ شأنها من يحوكها	إذا ما ثوى كعب وفوّز جرولُ
كَفيتُكَ لا تلقى من الناس واحداً	تنخّلَ منها مثلَ ما اتنخّلُ
نقولُ فلا نعيا بشيءٍ نقولهُ	ومن قائليها من يسيءُ ويعملُ
نثقفها حتى تلينَ متونُها	فيقصرُ عنها كلُّ من يتمثَّلُ[2]

ويجد الدكتور عبد العزيز عتيق في أبيات كعب السابقة " ملاحظة نقدية مجملة تشير إلى الاتجاه الذي ابتدعه زهير في صناعة الشعر. وأعني بذلك الاتجاه إلى تنقيح الشعر وتثقيفه مع النظر في متونه وأعطافه من حيث الفصاحة والجزالة، وبسط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشعر وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض"[3]. وهذا يدل على أن هناك تغيّراً في السياق والبنية والقيمة الفنية، وإذا تأملنا في تلك الآراء النقدية ورأي الدكتور عتيق على وجه الخصوص نجد فيه قبولاً، إذ إن التفاخر بصفات أشعار الشعراء، ووصف أحدهم الآخر ما هو إلاَ ملاحظات نقدية كان لها أثرها في النقد الأدبي فها هو المُزَرِّد بن ضرار يغضب لعدم ذكره ويرد على قصيدة كعب بن زهير وتفاخره وينظم على غرار ما نظّم فيقول في أبيات منها مشيراً إلى ذكر عدد من المصطلحات النقدية:

---

(1) ينظر: اللسان مادة نقح والتنقيح: تشذيبك عن العصا أبنها حتى تخلص، ونقح الشيء قشرّه.

(2) طبقات فحول الشعراء104/1- 105 للاستزادة ينظر:الشعر والشعراء 56/1، والأبيات في ديوان كعب بن زهير، ص 66 مع تغيير يسير فصدر البيت الثالث (يقول فلا أعيا بشيءٍ يقوله) وفي الاخير (نقومها حتى...).

(3) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، الدكتور عبد العزيز عتيق، ص 85.

openkanar.com

وباستِك إذ خلَّفْتَنِي خَلْفَ شاعرٍ ... من الناس لم أُكْفَ ولم أتنحَّلِ

فإن تخشبا أخشب وإن تتنخّلا ... وإن كنت أفتي منكما اتنخّلِ

ولستَ كحسانِ الحسام بن ثابتٍ ... ولستَ كشمّاخٍ ولا كالمنخّلِ

وأنت امرؤٌ من أهل قدس أوارةٍ ... أحلّتك عبدُ الله أكنافُ مبهلِ[1]

وقد علق الدكتور طه حسين على ذلك بقوله: " والذي يعنينا من هذه القصيدة عناية كعب والحطيئة بتثقيف القوافي حتى تستقيم متونها، ونهوض مزرّد لهما، وتفضيله عليهما أخاه الشماخ وحسان بن ثابت والمنخّل "[2].

يبدو أن كلام الشعراء وإطلاقهم الأحكام مع تعليل تلك الأحكام إنما هو حكم نقدي، ولا نشك في أنه جاء استناداً إلى علم دقيق وفهم عميق ودراية بأحوال العرب ومعرفة بأذواقهم، فكأن كل من نطق بالحكم ناقد. وإننا إذا استقرينا نصوصاً أخرى وجدنا مصطلحات جديدة كانت مفتاحاً لباب نقدي مهم.

(1) ينظر: طبقات فحول الشعراء1/1.5-1.6 1/ 88. 89، للاستزادة ينظر:الشعر والشعراء 156/1.والأبيات في ديوان مزردبن ضرار، ص 80-81. وقدس أوارة: جبل لمزينة وعبد الله يعني عبد الله بن غطفان، وكان كعب فيهم ينظر:معجم ما استعجم، البكري، ص1051.

(2) في الأدب الجاهلي، ص291.

obeikandl.com